

شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هذه السلسلة ..

عندما تتحوَّل حياة الفرْد منا إلى صحراء جرداء ..

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..

يتوق قلب كل منا إلى الحبِّ .. الحبِّ الذى يروى هذه المشاعر.

فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحبِ بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب .. وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فتشيع عبيرها الفوّاح في ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذي طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرِّك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ ـ الحب الحائر ..

تطلع (صلاح) إلى الحقول الخضراء الممتدة أمامه ، وهو ينظر إلى ساعته فى قلق ، وقد بدت عليه ملامح الغضب والضيق ..

كان من المفروض أن تأتى إليه منذ نصف الساعة .. وقد اعتاد منها ألا تخلف ميعادها معه أبدًا ، أو تتأخر فى الحضور .. ولكن هاهى ذى قد تأخرت عن الموعد الذى حدده لها ، وربما لن تأتى كما فعلت فى المرة السابقة .. فقد وافقت على أن تقابله بعد إلحاحه وملاحقته لها ، دون أن تبدى أسبابًا مقنعة أو مقبولة ، لهذا التغير الذى طرأ على سلوكها .. وهى التى كانت تتلهف على تلك اللقاءات .

وما لبثت أساريره أن انفرجت .. فلقد لمحها قادمة بالقرب من الساقية ..

ولكنها بدت مضطربة وهى تتلفت وراءها من آن لآخر ، كما لو كان هناك من يلاحقها أو يتتبع خطاها .

ومد لها يديه ، وأصابعه تحتضن أصابعها قائلًا :

ـ (غلا) .. لماذا تأخرت ؟

قالت (عُلا) دون أن تتخلص من اضطرابها :
ـ فى الحقيقة يا (صلاح) .. لم أكن أنوى أن أحضر .
عادت ملامح الضيق لترتسم على وجهه وهو يتطلع إليها قائلًا :
ـ ماذا ؟.. لم تكونى تنوين الحضور .. مرة أخرى ؟.. وبعد أن ألححت عليك كل هذا الإلحاح ؟!
(عُلا) :
ـ ولولا هذا الإلحاح .. لما أتيت .
(صلاح) :
ـ أيعنى هذا أننى بدأت أفرض نفسى عليك ؟
(عُلا) :
ـ (صلاح) لا تخطئ فهمى .
(صلاح) :
لم أعد أفهم شيئًا .. ما سر هذا التحول فى سلوكك نحوى ؟ وأين ذهبت لهفتك واشتياقك لمقابلاتنا ؟
(عُلا) :
ـ هناك أشياء كان يتعين علينا أن نضعها فى اعتبارنا ، قبل أنْ نندفع وراء عواطفنا على هذا النحو الذى اندفعنا إليه .
(صلاح) :
ـ أية أشياء تلك التى تتحدثين عنها ؟

(عُلا) :
ـ إننا نقطن بلدة ريفية صغيرة لا يمكن إخفاء الأمور فيها دائمًا .
تأمَّلها (صلاح) بنظرة فاحصة مستطردًا :
ـ مازلت لا أفهم .
(عُلا) :
ـ (صلاح) .. لقد بدأت العيون تراقبنا .. والناس تتحدث عنا .. وعن مقابلاتنا المستمرة .. وبعض هذه الأقاويل وصلت لوالدى .. وأبى رجل كبير فى السن كما تعلم ، كما أنه فقير .. كل ما يمتلكه من حطام الدنيا بضعة قراريط صغيرة فى قريتنا ، ينفق منها علىَّ وعلى إخوتى الصغار بعد وفاة أمى .. ولا يستحق منى أن أجلب له الخزى والمهانة بعد كل هذا العمر .. وهو الرجل الذى عاش طوال حياته ، معتزًّا بنفسه وبكرامته برغم فقره .
لقد بدأ البعض يتغمز ويتلمز على علاقتنا أمام أبى ، ويتهمه بأنه لم يحسن تربيتى ، ويتركنى ألهو كما أشاء مع ابن شاكر بك .
ومنذ أربعة أيام ، وجدت أبى يأتى إلى المنزل ثائرًا ، وينعتنى بأقطع الصفات .. ثم ينهال علىَّ ضربًا ، وهو الذى لم يفعل معى ذلك أبدًا طوال حياتى .. بعد أن أيقن من صدق

الشائعات التى كانت تتردد عن علاقتنا .. وكاد يقسم علىّ بأن يمنعنى من مغادرة المنزل ، لولا أننى استحلفته بالله ألا يفعل .

وفى النهاية انهار وأخذ يبكى .. وهو يطالبنى بألا أهين شيبته .. وأن أقطع صلتى بك مطلقًا .

وتطلعت إليه مردفة :

ـ ومع ذلك .. فقد أتيت .. أتيت برغم أننى لم أعص لأبى أمرًا طوال حياتى .. أتيت بعد إلحاحك لكى أفسر لك حقيقة الأمر ، ولتعرف أنه سيكون لقاءنا الأخير .

أطلت من عينيه نظرة فزعة ، وكأنه سمع شيئًا لم يكن يتوقع سماعه مرددًا :

ـ لقاءنا الأخير ؟!

(عُلا) :

ـ نعم .. لن نستطيع أن نلتقى بعد اليوم يا (صلاح) .. فلن أستطيع أن أعرض سمعتى وسمعة أبى للإساءة بعد الآن .

(صلاح) :

ـ ولكنى أحبك يا (عُلا) .

(عُلا) :

ـ وماذا بعد الحب يا (صلاح) ؟

أطرق (صلاح) برأسه أرضًا دون أن يجيبها .. فى حين أردفت وهى تتأمله قائلة :

ـ هل رأيت ؟.. إنك لا تستطيع أن تجيب .. ولك حق ؟ فالإجابة التى تتعين على الشخص الذى يحب ـ إذا كان يعرف معنى الحب حقيقة ـ عندما يجد أن سمعة الفتاة التى يحبها ستتعرض للخطر من أجله .. هو أن يبادر بالزواج منها لكى يحمى سمعتها ، ويؤكد حبه لها .

ولكن كيف يمكنك أن تتزوجنى ، وأنت ابن البك الكبير صاحب الأفدنة ومصانع الطوب والبلاط .. أثرى أثرياء البلد ، وأكبر أعيانها ؟

كيف يتسنى لابنه أن يتزوج من فتاة فقيرة مثلى ؟.. أبوها كان فلاحًا أجيرًا فى أرض أبيه .. ثم تكرم عليه الأب فمنحه عشرة قراريط ليزرعها لحسابه ، مكافأة له على خدمته له سنوات طويلة ؟.. وهى لا تكاد تكفى لإعالته ، وإعالة أبنائه ؟

(صلاح) :

ـ (عُلا) .. لا تقولى هذا .

(عُلا) :

ـ لماذا ؟.. أليست هذه هى الحقيقة ؟ إن لدىّ مؤهلًا متوسطًا مثلك .. ولكن الفارق بيننا كبير .. فكل ما حصلت عليه من الحياة هو هذا المؤهل المتوسط .. أما أنت فلديك

العديد من المؤهلات الأخرى ، التى منحتها لك الدنيا ، بما يكفى لجعل المسافة بيننا شاسعة .

فلديك الأب الثرى .. والأسرة العريقة .. والمال الوفير .. والأملاك العديدة .

ابتسم (صلاح) قائلًا وهو ينظر إليها بحنان :

- نسيت أهم شىء .. فإن لدى قلبًا يحبك .

(غلا) :

- إننا لن نخدع أنفسنا بكلام الروايات يا (صلاح) .. فالواقع يختلف .. الواقع لا يعترف بالقلوب المحبة ، دون مراعاة الظروف الاجتماعية والفوارق المادية .

(صلاح) :

- ومع ذلك فإن هذه الظروف الاجتماعية التى تتحدثين عنها ، لم تمنعك من أن تحبينى كما أحببتك .. فأين كانت تلك الأفكار التى ترددينها وقتها ؟

(غلا) :

- كنت أحاول أن أتغافل عنها .. لأن حبى لك كان أقوى من أى شىء آخر .. أقوى حتى من كل ما كنت أسمعه عنك ، من أن لك العديد من الضحايا والعلاقات الغرامية ، وأنك شاب مستهتر عابث .. لا تجيد سوى الإنفاق من مال أبيك على السهرات وموائد القمار و ...

صاح فيها (صلاح) محتدًا ، وهو يقول :

- (غلا) :

(غلا) :

- آسفة .. إننى لا أقصد إهانتك .. ولكنى أردت منك أن تعرف ، أننى طرحت أشياء كثيرة بعيدًا عن عقلى ، لأننى لم أستطع أن أقاوم مشاعرى نحوك .. وسددت أذنى عن كل ما سمعته ، لأننى لم أكن أطمح إلا فى الساعات القلائل التى كنا نلتقى فيها وتجمعنا معًا .. وأغمضت عينى عن كل الفوارق التى تفصل بينى وبينك ؛ لأننى لم أكن لأقوى على أن أفقدك .

ولكن كان لا بد لى أن أتوقف فى لحظة ما ، لأتساءل عن مصير هذه العلاقة .. كان لا بد لى من لحظة أعمل فيها عقلى ، وأفتح فيها عينى ، وأنا أسأل إلى أين يقودنا هذا الحب ؟

لقد نسيت نفسى .. ونسيت أبى .. وإن لم أرأف بكرامتى وسمعتى ، فعلى الأقل يتعين علىّ أن أرأف بكرامة وسمعة أبى .. أبى الذى عاش دائمًا عزيزًا وكريمًا .. أبى الذى منحنا كل حياته .. هل تفهمنى يا (صلاح) ؟

(صلاح) :

- إننى لا أفهم شيئًا سوى أننى لا أريد أن أفقدك .. مهما كانت الأسباب .

(عُلا) :

ـ حتى لو كانت هذه الأسباب على حساب نفسى وسمعتى وكرامتى وكرامة والدى ؟!

(صلاح) :

ـ (عُلا) .. إننى أحبك .

(عُلا) :

ـ هذا لا يكون حبًا .. ولكنه أنانية .

(صلاح) :

ـ أنانية لأننى لا أريد أن أفقدك ؟

(عُلا) :

ـ إذا كنت تحبنى حقًا ولا تريد أن تفقدنى .. فلماذا لم تقل تلك الكلمة ، التى يتعين على أى شاب يحب فتاة ويتمسك بها أن يقولها ؟

(صلاح) :

ـ أتقصدين أن نتزوج ؟

(عُلا) :

ـ ألم تفهم قصدى بعد يا (صلاح) ؟

(صلاح) :

ـ أهذا هو ما ترمين إليه من وراء كل هذه التمثيلية ؟

قالت بمرارة :

ـ تمثيلية .. أهذا هو ما تظنه بى ؟

وهمت بالانصراف ، لكنه سارع بالإمساك بساعدها وهو يستوقفها ، قائلًا :

ـ (عُلا) .. أرجوك لا تغضبى منى .

ثم أطرق قائلًا :

ـ أنا آسف .

(عُلا) :

ـ لا داعى للأسف .. أنا التى آسف لأننى أحرجتك بما قلته .

(صلاح) :

ـ إن ما قلته هو الإجابة التى كان يتعين علىَ أن أجيبك بها .. ولكنك تعرفين ظروفى .. وعلاقتى المتوترة مع أبى .. إنه لن يقبل بسهولة أمر زواجي منك .. وربما أقام الدنيا وأقعدها ، لو فاتحته فى هذا الأمر .

(عُلا) :

ـ إذن لا مناص من أن نفترق .

(صلاح) :

ـ كلّا يا (عُلا) .. لا ترددى هذه الكلمة .. لا يمكننا أن نفترق .

قالت (عُلا) وهى تغمض عينيها بأسى :

- أرجوك يا (صلاح) .. لقد شرحت لك الأمر فلا تزده صعوبة .

(صلاح) :

- سنتزوج يا (عُلا) .

نظرت إليه بدهشة ، قائلة :

- نتزوج !! ماذا تقول ؟

(صلاح) :

- كما سمعت .. فلنتزوج .

(عُلا) :

- ولكنك قلت ...

قاطعها قائلًا :

- ليكن زواجنا سريًا فى المرحلة الحالية .

حاولت أن تبدى اعتراضها ، ولكنه وضع يده على شفتيها ليمنعها من الكلام ، قائلًا :

- أرجوك يا (عُلا) .. لا ترفضى .. إننا سنكتفى بأن يكون زواجنا سريًا الآن .. ثم نجعله علنيًا فيما بعد .. وبعد أن تتوافر الظروف المناسبة .. وأتمكن من تدبير أمرى .

(عُلا) :

- ولكن أبى .. والناس .

(صلاح) :

- سيعرف الجميع فى الوقت المناسب .. المهم

ألا نفترق أبدًا .. فإننى أحبك بالفعل ، ولا أريد أن أفقدك .

يمكننا أن نذهب إلى (القاهرة) أو (الإسكندرية) لنتمم هذا الأمر خلال ساعات قلائل ، ثم سنعود إلى البلدة .

هزت رأسها وقد بدت رافضة لهذا الاقتراح .. ولكنها لم تجد حلًا آخر يكفل لها الاحتفاظ بحبيبها ، ويحقق لها بعضًا من حلمها ، الذى لم تتصور له يومًا واحدًا أن يقترب من الحقيقة .

ودار عقلها من شدة الحيرة ..

دار بلا توقُّف ..

وبلا هوادة .

* * *



٢ ـ العابث ..

كان (رشدى السعدنى) قد غادر لتوه مصنع البلاط الذى يملكه ، وبدأ فى المرور على أراضيه الزراعية ، برفقة المشرف على الأراضى .. وهو يلقى إليه بتعليماته من آن لآخر ، بشأن محاصيل الفاكهة والخضراوات ، وطريقة جنيها وجمعها هذا الموسم .

وكان الرجل مثال النشاط والجد ، برغم سنوات عمره المتقدمة .. فلم يكن يرى إلا مكبًا على عمله ، ما بين مصنع الطوب ومصنع البلاط .. ومباشرًا لحركة الزراعة فى أراضيه ، ولم يحوله الثراء الذى وصل إليه ، بسنوات الكدّ والعرق ، إلى أن يصبح ذلك النوع من الرجال المرفهين الكسالى .

وكان الجميع يهابونه ويقدرونه ، لقوة شخصيته وجديته الشديدة .

وما لبث أن نظر إلى أحد الأشخاص ، وهو يأتى مخترقًا الحقول الزراعية فى اتجاهه .. وسأل المشرف الزراعى لأرضه ، قائلًا :

ـ أليس هذا (على البحراوى) ؟

قال المشرف :

ـ نعم .. إنه هو .

(رشدى) :

ـ وما الذى أتى به إلى هنا ؟

مشرف الزراعة :

ـ إنه يتجه نحونا .

كان الرجل متقدمًا فى السن ، منخفض الكتفين .. هزيل الجسم .. وبدت تقاطيع وجهه غاضبة ومتجهمة .

وما لبث أن توقف أمام (رشدى السعدنى) الذى ابتدره قائلًا :

ـ كيف حالك يا (بحراوى) ؟ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

قال الرجل بنبرة تنم عن غضبه :

ـ (رشدى) بك .. أريد أن أتحدث إليك بمفردك .

نظر إليه (رشدى) متعجبًا ، وهو يقول :

ـ قل ما تريده دون أن تخشى شيئًا .. (فرج) ليس غريبًا .. فهو مشرف زراعتى وأنت تعرفه أكثر منى .

ولكن (البحراوى) قال بإلحاح :

ـ أرجوك يا (رشدى) بك .. أريد أن أحدثك بمفردك .

قال مشرف الزراعة محاولًا التخلص من هذا الحرج :

- سأذهب للإشراف على الأنفار .

وانصرف بسرعة ، في حين تطلع (رشدى) إلى الرجل في فضول واستغراب ، قائلًا :

- ها هو ذا (فرج) قد ذهب .. قل ما تريده .

قال الرجل دون أن يتخلص من غضبه :

- ولدك يتقابل مع ابنتى ، ويلاحقها بطيشه ورعونته .. حتى أصبحت سمعتها على كل لسان فى البلد وفى القرية .

صاح فيه (رشدى) :

- ماذا تقول ؟

(البحراوى) :

- ما سمعته يا (رشدى) بك .

(رشدى) :

- ولكنى لم أسمع عن شيء من هذا مطلقًا .

(البحراوى) :

- بالطبع .. فالجميع هنا يخشونك ، ويخفون عنك هذا الأمر .

(رشدى) :

- هل حدث هذا منذ فترة طويلة ؟

(البحراوى) :

- لا أدرى .. ولكنى تيقنت من الأمر بنفسى .

(رشدى) :

- وأنا لا أدرى شيئًا ؟! أأكون من أعيان البلد ولا أدرى ما الذى يفعله ابنى فيها ؟!

(البحراوى) :

- المهم أن توقف ابنك عند حده .. وتمنعه من ملاحقة ابنتى .

قال (رشدى) غاضبًا ، وقد ساءه ان يحدثه شخص كان أجيرًا لديه بهذه اللهجة :

- كيف تجسر على محادثتى هكذا ؟.. أتعلمنى كيف أتعامل مع ابنى ؟

(البحراوى) :

- العفو يا (رشدى) بك .. ولكن رجلًا مثلك ، عاش طوال حياته يعرف الأصول ، ويحترم التقاليد والعادات التى تربينا عليها ، لا أعتقد أنه سيقبل شيئًا كهذا .

(رشدى) :

- ومن قال لك إننى سأقبله ؟ ثم لماذا لا توقف أنت ابنتك عند حدها ؟ .. كيف ؟.. كيف سمحت لنفسها أن تقيم علاقة عاطفية مع ابنى ؟

(البحراوى) :

- لقد نالت منى كفايتها بالفعل .. ووعدتنى بأن تتوقف عن لقائها بابنك .

ولكن الفتاة غريرة لا خبرة لها بالحياة .. وابنك أنت تعرفه جيدًا ، إنه يستخدم شبابه وفراغه وبراعته فى ملاحقة ابنتى ، ومحاولة التأثير عليها .. ولو لم يكن ابن الرجل الذى هو رب نعمتى .. والذى أدين له بالكثير من الفضل ، لكان لى معه شأن آخر .

زفر (رشدى) بضيق قائلًا :

ـ حسن .. سأتصرف مع (صلاح) .. وسأضع نهاية لهذا الأمر .

(البحراوى) :

ـ عمَّر الله بيتك يا (رشدى) بك .. لقد أصبحت رجلًا مسنًا ولا أحب بعد هذا العمر ، أن يصبح اسمى واسم ابنتى مضغة فى الأفواه .. لقد ربيتُ ابنتى أحسن تربية ، ولكنَّ الكلام المعسول يكون له أحيانًا فعل السحر على النفوس .. ويجعل المرء يخالف الكثير مما تربى عليه ، إذا ما وقع تحت تأثيره .

صاح فيه (رشدى) بضيق قائلاً :

ـ انتهى الأمر يا (بحراوى) .. قلت لك سأتصرف وأضع نهاية لهذا الموضوع .

أحنى الرجل رأسه قائلًا :

ـ سأعتمد على الله وعليك فى هذا الأمر يا سعادة البك .

وما لبث أن ذهب مسرعًا .

وبينما هو فى طريقه ، التقى بـ (عمر) شقيق (صلاح) الذى جاء لمقابلة والده .

وابتسم له (عمر) قائلًا :

ـ أهلًا يا عم (بحراوى) .

(بحراوى) :

ـ أهلًا بك يا (عمر) بك .

(عمر) :

ـ هل جئت لمقابلة أبى فى شىء ؟

(بحراوى) :

ـ نعم .

ـ خير إن شاء الله .

قال له (بحراوى) وهو يسير مسرعًا :

ـ هو سيخبرك .

وعلى الرغم من أن (رشدى السعدنى) قد شقى بابنه الكبير (صلاح) ، فقد وجد ما يعوضه عنه وعن الهموم التى سببها له ، فى ابنه الأصغر (عمر) .

كان (عمر) ناجحًا دائمًا فى كل مجال يعمل به .. فقد ظل متفوقًا فى دراسته منذ المرحلة الابتدائية ، وحتى تخرجه من كلية التجارة .. وكان عونًا لأبيه منذ صغره ..

فلم يكن قانعًا بتفوقه الدراسى فقط .. بل كان يشاركه دائمًا الاهتمام بأرضه ومصانعه ، حتى أصبح يشاركه إدارتها بعد تخرجه .. وبمثابة ذراعه اليمنى فى كل أعماله ، بعد أن رفض الالتحاقَ بإحدى الوظائف المرموقة فى (القاهرة) .

وبرغم أن (رشدى السعدنى) قد منحهما منذ الصغر نفسَ الاهتمام ، ونفس القدر من العناية ، إلا أن الاختلاف كان بينهما كبيرًا فى العادات والطباع والمبادئ .

لم يكن (صلاح) متفوقًا فى دراسته منذ الصغر .. بل كان ملولًا كسولًا ، يميل دائمًا إلى اللهو والهروب من المدرسة ، حتى تمكن من الحصول على مؤهله المتوسط بصعوبة .. وقد حاول أبوه أكثر من مرة ، أن يدفعه إلى مشاركته العمل ، والاهتمام بالأرض .. ولكنه لم يجد لديه الجلد والمثابرة ، اللتين عهدهما فى نفسه وورّثهما ابنه الأصغر .. بل كان دائمًا ما يهرب من العمل ، كما كان يفعل فى المدرسة ، ويلجأ إلى وسائل اللهو والتسلية ، والسهر حتى الصباح مع رفاق السوء ، سواء فى البلدة أو فى (القاهرة) ، التى كان يرتادها بصورة تكاد تكون شبه دائمة ، مقيمًا فى الشقة التى كان يمتلكها والده بالقرب من وسط العاصمة .

حتى يئس منه أبوه ، وأبعده عن مشاركته فى أعماله ، دون أن يفقد الأمل تمامًا فى أن يتمكن ذات يوم ، من أن يقوّم من سلوكه وأخلاقه .

نظر (عمر) إلى وجه والده الحزين ، وقد انتابه القلق قائلًا :

ـ أبى .. ماذا بك ؟

قال له (الأب) بقنوط :

ـ لن ننتهى من مشاكل (صلاح) ومتاعبه .

غمغم (عمر) قائلًا :

ـ وماذا فعل (صلاح) هذه المرة ؟

سأله الأب :

ـ هل كنت تعرف أن لأخيك علاقة بابنة (البحراوى) ؟

أطرق الشاب صامتًا دون أن يجيب .

فتنهد الأب ، قائلًا :

ـ إذن فقد كنت تعرف .

(عمر) :

ـ لقد حاولت أن أنصحه بالابتعاد عنها .. لكنه لم يستمع لى ، وصار بيننا خلاف بسبب ذلك .

(الأب) :

ـ هل الفتاة من ذلك النوع العابث السيئ السمعة ؟

انتفض (عمر) وهو يقول : .
- كلا يا أبى .. ابنة (البحراوى) ربيت أحسن تربية ، ومشهود لها بالخلق القويم .. ولكن (صلاح) استغل براءتها وعدم خبرتها بالحياة ، وأخذ يطاردها حتى تمكن من أن يقنعها بأنه يحبها .. وجعلها تتعلق به .
(الأب) :
- ولماذا لم تخبرنى بذلك من قبل ؟
(عمر) :
- لم أكن أريد أن أثقل عليك بأمر كهذا ، وأحملك بالمزيد من الأعباء .. ثم إننى ظننت أنها نزوة وتنقضى ، كدأب (صلاح) فى نزواته السابقة .
صاح (الأب) بغضب :
- نزواته السابقة كان يرتكبها بعيدًا عنا فى (القاهرة) .. أما هنا فى بلدة صغيرة كهذه البلدة .. فأى نزوة أو خطيئة يرتكبها .. تلتصق بنا .. هل يرضيك وأنا الرجل الذى حججت إلى بيت الله .. أن يقال عنى إننى قد أنجبت ولدًا فاسدًا ، لا يقيم وزنًا للأخلاق ولا لأعراض الناس ؟ هل تقبل أن يقال نفس الشىء عن أمك ، السيدة التى يشهد لها الجميع بالتدين وحسن الخلق ؟.. وهل تقبله أنت لنفسك ؟
هل تقبل أن يكون لك أخ كهذا ؟

لقد حذرته أكثر من مرة ، وحاولت أن أتعامل معه باللين تارة ، وبالشدة تارة أخرى دون فائدة .
بل حاولت أن أجعله رجلًا مسئولًا ، وأشركه فى عملى ، وأزوجه من ابنة خالته الفتاة الفاضلة .. ولكنه تمرد على كل محاولاتى ، وترك نفسه لطيشه وأهوائه .. حتى أصبح مصدر إساءة لسمعتنا كلنا .
قال (عمر) سريعًا :
- سُمعتك محفوظة يا أبى .. فالكل يعرف من أنت ، ويعرف الفارق الكبير بينك وبين (صلاح) .. ادع له الله بالهداية يا أبى .. فلا بد له أن ينضج ذات يوم .
(الأب) :
- إن أمثاله لا يهتدون أبدًا ..
ثم صمت برهة قبل أن يردف قائلًا :
- وحتى لو غفرت له .. فإن أهل البلدة هنا لا يغفرون فى أشياء كهذه .. إن للناس هنا أعراضًا يدافعون عنها بأرواحهم .. فهو بالطبع لن يتزوج ابنة (البحراوى) ، وإذا كان (البحراوى) قد أبدى تعقلًا ، وعمل حسابًا لى ، وجاء ليشرح لى الأمر هذه المرة ، فتأكد أنه لن يتمكن من كبح جماح نفسه مرة أخرى ، ولن يقيم لى وزنًا أو اعتبارًا ، إذا ما عاود أخوك الاتصال بابنتـه ، أو ملاحقتها .. إنه قد يقدم على قتله فى هذه الحالة .

قال (عمر) محاولًا طمأنته :

- لن يصل الأمر إلى هذا الحد .

(الأب) :

- بل يصل .. وأنت تعرف هؤلاء الناس .

ثم صمت برهة قبل أن يقول :

- ومنذ متى وهو يساير هذه الفتاة ؟

(عمر) :

- منذ عام تقريبًا .

(الأب) :

- أى أنه كان على علاقة بها بعد أن قرأنا فاتحته على ابنة خالته ..

أخوك سيجنى على نفسه ، ولم أعد مستعدًا للتهاون معه بعد الآن .

لقد حاولت مع هذا الولد .. ولكنى أعترف بأننى فشلت .. لقد رضيت بفشله فى الدراسة وفى العمل ، وبتلك الحياة اللاهية التي يحياها ، وارتياده موائد القمار وشرب الخمر ، على أمل أن ينصلح حاله ذات يوم .. ولكنه ما زال يتمادى .. ولا بد من مواجهته بحزم .

(عمر) :

- ولكن يا أبى ..

زجره أبوه قائلًا :

- لا تحاول الدفاع عنه كعادتك .. لست مستعدًا لسماع أى كلمة دفاع عنه بعد الآن .. أين هو الآن ؟

قال (الابن) وهو قلق :

- فى المنزل .

تأهب (الأب) للانصراف قائلًا :

- سأذهب إليه وألقى عليه درسًا قاسيًا .

ولكن الابن استوقفه قائلًا :

- تمهل يا أبى .. لا تنس أن أمى هناك ، وسوف تحزن حزنًا عظيمًا لو أثيرت أمامها أشياء كهذه .. فأنت تعلم مدى حبها لـ (صلاح) .

تراجع (الأب) عن اندفاعه ، وقد انتبه لتلك الحقيقة قائلًا :

- معك حق يا بنى .. أمك مريضة ، ويجب ألا نتسبب فى زيادة آلامها وحزنها ، من أجل ولد وضيع كهذا .

اذهب إليه فى المنزل ، ودعه يلحق بى فى مصنع الطوب .. وهناك سيكون حسابى معه .

(عمر) :

- أمرك يا أبى .. ولكن أرجو ألا تقسو عليه أكثر من اللازم .

(الأب) :

- اذهب إليه ، ودعه يحضر إلىَ فى الحال .

وذهب (عمر) ..

واستعد (الأب) للمواجهة .

* * *



٣ - المواجهة ..

ذهب (صلاح) إلى والده فى حجرة مكتبه بالمصنع ، حيث كانت ملامح الضيق والغضب ما زالت واضحة على وجهه .

فقال له (صلاح) وقد استشعر غضبه :

- خيرًا يا أبى .. لقد أخبرنى (عمر) أنك تريد أن أحضر إليك فى المصنع .

قال (الأب) ، وهو يحرك ساقيه بعصبية :

- أوصد الباب خلفك .

أطاعه (صلاح) .. ثم اقترب من مكتبه وهو يتساءل عن سر غضب أبيه ، ويهيئ نفسه لصدام جديد معه .

وسأله (الأب) قائلًا :

- لقد أخبرتنى والدتك اليوم أنك تريد خمسمائة جنيه .

أطرق (صلاح) قائلًا :

- نعم .

(الأب) :

- لماذا ؟

قال متلعثمًا :
- إننى أحتاج إليها .
عاد (الأب) ليكرر سؤاله قائلًا :
- لمـاذا ؟
(صلاح) :
- أريد شراء بعض الأشياء الخاصة بى .
(الأب) :
- تريد شراء بعض الأشياء ، أم تريد أن تسدد دينًا جديدًا للقمار ؟
(صلاح) :
- كلًا يا أبى .. لقد وعدتك ...
(الأب) :
- ومتى كنت تفى بوعد أو عهد ؟
(صلاح) :
- يا أبى ...
قاطعه (الأب) مرة أخرى ، قائلًا :
- أين ذهبت الأربعمائة جنيه التى أعطيتها لك منذ ثلاثة أيام ؟
(صلاح) :
- فى الحقيقة .. لقد فقدتها .. يبدو أن المحفظة قد

سقطت منى عندما كنت فى أحد المحلات بـ (القاهرة) وبها المبلغ .. وهذا ما دفعنى إلى طلب الخمسمائة جنيه منك .
قال (الأب) بنبرة عالية :
- فى الحقيقة .. أنك كاذب وأفاق .
قال (صلاح) محتجًا :
- أبى .
(الأب) :
- يؤسفنى أننى أبوك ويخجلنى أنك ابنى .
(صلاح) :
- كل هذا لأننى طلبت منك خمسمائة جنيه ؟.. ماذا يساوى هذا المبلغ فى حساب ثروتك ؟
(الأب) :
- ثروتى التى تتحدث عنها ، جاءت نتيجة كدّ وتعب وشقاء .. صنعتها بعرقى وبكفاحى ، بدأت عاملًا باليومية فى مصنع كهذا ، وبالإضافة إلى ذلك كنت أشارك أبى ، فى فلاحة القراريط الصغيرة التى كان يزرعها .. ولا أذكر أننى مددت له يدى يومًا لأطالبه بقرش واحد .
ألا تخجل من نفسك ؟ شخص طويل وعريض يحيا عاطلًا على هذا النحو ، ويمد يده كل ساعة لأبيه مطالبًا إياه بالمال ؟!

زفر (صلاح) بضيق قائلًا :
ـ هل سنعود إلى هذا الأمر مرة أخرى ؟
(الأب) :
ـ بل إننى مصمم على حسم هذا الأمر معك اليوم .. لا بد أن أضع حدًا لعبثك واستهتارك وأعمالك المخزية .. إنك لن تنال منى قرشا واحدًا بعد اليوم .. ولن أكون مسئولًا عن إنسان عاطل ومستهتر مثلك .
استدار (صلاح) وهو يهم بالانصراف .. لكن أباه صاح به فى غلظة :
ـ انتظر يا ولد .. إننى لم أكمل كلامى بعد .
التفت إليه (صلاح) ، وقد بدا مكفهر الوجه ، حيث استطرد (الأب) قائلًا :
ـ ما الذى تريده من ابنة (البحراوى) ؟
اضطرب (صلاح) لدى سماعه ذلك ، وأردف الأب قائلًا :
ـ ما الذى تبتغيه من فتاة فقيرة ويتيمة ، ترعى شئون أبيها وإخوتها الصغار ؟
تلعثم (صلاح) قائلًا :
ـ إننى .. إننى ...

تابع (الأب) حديثه قائلًا :
ـ هل وصل بك الأمر إلى ملاحقة الفتيات هنا .. فى بلد أبيك ؟.. ومع فتاة من قريته ؟.. القرية التى ولد بها أجدادك .. أجدادك الشرفاء الذين يتحدث بسيرتهم وفضلهم الأهالى .
ألا تكفيك فضائحك فى (القاهرة) ؟ وتلك الملاهى التى تتردد عليها ، والسهرات المشبوهة التى تقضيها على موائد القمار ، ومع فتيات سيئات السمعة ؟
أتظن نفسك هنا فى (القاهرة) ؟ ألا يكفى ما يقوله عنك أهل البلد هنا ؟ ابن البك العواطلى المستهتر ؟.. هل وصل بك الأمر إلى التعدى على أعراضهم ؟ أم تريد الإساءة إلى أبيك بأكثر مما تفعل ؟
(صلاح) :
ـ يا أبى الأمر ليس كما تتصور .
قال الأب وقد ازدادت حدة صوته :
ـ الأمر يجب أن ينتهى عند هذا الحد .. إن الخطأ كان خطئى منذ البداية .. لقد دللتك واحتملت متاعبك أملًا فى أن ينصلح حالك دون جدوى ، حتى تسببت فى إفسادك بأكثر مما أنت عليه .
عليك أن تسرع إلى البيت ، وتحزم حقائبك .. ثم تغادر

هذه البلدة دون أن ترينى وجهك بعد اليوم ، إلا إذا كنت مستعدًا لأن تكون رجلًا ، وقادرًا على تحمل المسئولية .

(صلاح) :

- أتريد منى أن أرحل عنك ؟

(الأب) :

- نعم ، وأنا أعنى ما أقوله .. لقد منحتك أكثر من فرصة من قبل ، لكى تغير من سلوكك وأفعالك ، ولكنك لم تفعل ، ولن أنتظر حتى تكون مصدر إساءة لى ولسمعة الأسرة أكثر من ذلك .

(صلاح) :

- لم أكن أنتظر منك أن تطردنى على هذا النحو وأنا ابنك .

قال له الأب بلهجة قاسية جامدة :

- لم يعد لى سوى ابن واحد هو (عمر) .. ولا تنتظر منى أية شفقة بعد اليوم .. منذ اليوم أنت مسئول عن نفسك وعن حياتك القادمة ، ولن أكون مسئولًا عنك بأى حال من الأحوال .

قال (صلاح) وفى صوته شىء من المرارة :

- حسن يا أبى ، سأرحل عنك وأريحك منى .

واستدار متجهًا نحو الباب .. لكن الأب استوقفه قائلًا :

- انتظر .

ظن (صلاح) أنه يحاول أن يستبقيه ، وقد أحس بتسرية فيما قال .. لكن الأب أردف قائلًا :

- لا تحاول الذهاب إلى شقة (القاهرة) .. فقد غيرت رتاج الباب ، ونبهت على البواب بألا يسمح لك بدخول العمارة .. وعليك أن تبحث لنفسك منذ الآن عن مأوى جديد .

قال (صلاح) وقد ازدادت المرارة فى صوته :

- اطمئن ، فأنا لن ألجأ إلى أى مكان تمتلكه ، أو تضع يدك عليه .

ثم خرج بعد أن صفق الباب وراءه .

وعاد (رشدى) إلى مكتبه وهو ثائر الأعصاب .. وأحس بارتفاع ضغطه ، فأسرع يتناول برشامة من دواء الضغط .

ولم يستطع جلوسًا ، فأخذ يدور جيئة وذهابًا فى الغرفة وهو مضطرب الأعصاب ، لم يندم على ما فعل .. بل وجد نفسه عادلًا ، وقد تذكر ما احتمله من عناء فى سبيل إصلاح هذا الابن العاق .

وما لبث بعد أن هدأت ثائرته قليلًا ، أن استقل سيارته متجهًا إلى منزله ، وقد قضى أربع ساعات فى مكتبه إثر انصراف ابنه .

وعندما تحركت به السيارة تملكه شعور بالحزن .. فبرغم إدراكه لعدل قراره الذى اتخذه بشأن (صلاح) .. إلا أنه أشفق على نفسه وعلى زوجته ، من نتيجة هذا القرار .

ترى كيف ستستقبل زوجته أمرًا كهذا ؟ إنه يعرف أنها شديدة التعلق بولديها ، دون النظر إلى اختلاف طباع وصفات كل منهما .. وهى التى كانت تتصدى دائمًا لانفعالاته على ابنه ، وتحاول معالجة الخلافات بينهما برقة وحكمة .. وتعمل على امتصاص غضبه قائلة :

- إن الله سيهديه فى النهاية .

لن يكون من السهل عليها مطلقًا ، أن تتقبل فكرة مغادرة ابنها للمنزل على هذا النحو ، وقد يؤثر هذا تأثيرًا سيئًا على حالتها الصحية .

كما أن (عمر) سيحزن أيضًا لرحيل أخيه .. برغم الخلافات العديدة بينهما ، فهو يعرف جيدًا أنه يحبه بالرغم من كل شىء .

ولا بد له أن يعترف أنه برغم ثقته بعدالة قراره .. فإنه مشفق على نفسه أيضًا ، وقد فقد أحد ولديه .. بعد فشله فى إصلاحه .

نادى (رشدى) الخادمة لدى وصوله إلى منزله قائلًا :

- (مبروكة) .

حضرت (الخادمة) إليه فى الحال حيث سألها قائلًا :

- أين سيدتك ؟

أجابته (الفتاة) قائلة :

- فى غرفتها يا سيدى .

عاد ليسألها :

- هل جاء (صلاح) إلى المنزل ؟

(الخادمة) :

- نعم يا سيدى ، ثم غادره بعد نصف ساعة .

(رشدى) :

- ألم يقل إلى أين هو ذاهب ؟

(الخادمة) :

- كلا يا سيدى .. لقد كان يحمل معه أمتعته واستدعى سيارة أجرة بالتليفون لتنقله إلى المحطة .

(رشدى) :

- ألم يقل شيئًا قبل ذهابه ؟

(الخادمة) :

- كلا .. لقد بدا مهمومًا ، وقد سألته أن يدعنى أحزم أمتعته ، كما هى عادتى كلما ذهب إلى (القاهرة) ، ولكنه رفض .

(رشدى) :
- وهل قابل سيدتك قبل ذهابه ؟
(الخادمة) :
- لقد كانت سيدتى نائمة لحظة انصرافه ، وقد ألقى عليها نظرة وبقى فى غرفتها لبعض الوقت ، ثم انصرف دون أن ينبهها لرحيله .
(رشدى) :
- وأين (عمر) ؟
(الخادمة) :
- لقد انصرف هو الآخر قبل حضور الأستاذ (صلاح) .
وسألته (الخادمة) بفضول :
- هل سيغيب كثيرًا هذه المرة فى (القاهرة) يا سيدى ؟
(رشدى) :
- نعم .. قد تطول غيبته هذه المرة .
(الخادمة) :
- إذن كان من الواجب أن يوقظ سيدتى ليودعها قبل سفره .
تنهد الأب قائلًا وكأنه يحادث نفسه :
- بل من الأفضل أنها لم تلتق به قبل رحيله .

عادت (الخادمة) لتسأله بفضول :
- ولكن لماذا كان يبدو مهمومًا هكذا ؟
تنبه (رشدى) إلى فضول خادمته .. فصاح فيها بغضب قائلًا :
- ليس هذا من شأنك .. أعدى لى الحمام ريثما أنتهى من تبديل ثيابى .
ودخل حجرة زوجته ، وهو مضطرب .. ضيق الصدر .
كانت الحاجة (فاطمة) زوجة (رشدى) امرأة شديدة الطيبة ، وتميل دائمًا إلى الحق والإنصاف ، إلا فيما يختص بابنها (صلاح) .. فقد ظلت تدافع عنه دائمًا برغم إنكارها لتصرفاته .. حتى بعد أن حلل نفسه من الارتباط بابنة أختها الراحلة ، وبرغم شدة حبها لهذه الفتاة ورغبتها الشديدة فى أن تقترن بـ (صلاح) .
وهو أيضًا كان يحب هذه الفتاة .. وكان حزنه شديدًا حينما جاء إليه ابنه ليعلنه برغبته فى التحلل من الاستمرار فى هذه الزيجة .. بل وإصراره على ذلك .. برغم أنه كان يظن أن كلا منهما يحب الآخر .. لكن سرعان ما تبين له أن هذا الحب ، الذى كان يظنه من جانب ابنه نحو ابنة خالته ، لم يكن سوى نزوة من نزواته العديدة . تمامًا كتلك النزوة التى يمر بها الآن مع ابنة (البحراوى) .. فأمثاله

لا يعرفون معنى الحب الحقيقى .. الحب الهادئ الرصين ، الذى يقوم على أسس متينة وقويّة ، كذلك الحب الذى جمع بينه وبين زوجته .. والذى ما زال يربط بينهما حتى الآن ، وبعد ثلاثين عامًا من زواجهما .

أما الفتاة المسكينة (نجلاء) ابنة خالته ، فقد تبين له أنها تحبه حبًا عظيمًا ، وأن رفضه لها قد أصابها بصدمة عاطفية قوية ، برغم أنها حاولت أن تتظاهر بعكس ذلك .

كان حزنه على عدم ارتباط ابنه بهذه الفتاة ، أشد من حزن زوجته التى هى خالتها .. فقد كانت الفتاة شديدة الشبه بزوجته .. ربما بأكثر مما تشبه أمها الراحلة .

ولم يكن الشبه فى ملامح الوجه فقط .. بل فى الكثير من الطباع والمزايا التى كان يجدها فى زوجته .

وكان يعتقد أنها سترشد ابنه إلى الطريق القويم ، فيما إذا تزوجها ، وتجعل منه رجلًا آخر . وكثيرًا ما تغاضى عن بعض تصرفاته الخاطئة ، خوفًا من أن تلحظ (نجلاء) عيوب الشاب الذى سيكون زوجها ذات يوم .

وتطلع (رشدى) إلى وجه زوجته الهادئ الذى يمتلئ طيبة وسماحة .. وهو يحرص على ألا يوقظها من نومها .. فما زال يجهل كيف يواجهها بما حدث بينه وبين (صلاح) ، وبأمر رحيله .

وربما أتاح له نومها بعض الوقت للتفكير فى وسيلة ، ليطلعها بها على ما حدث .. بأقل قدر ممكن من الإيلام .

إنه لن يكذب عليها .. ويخبرها أنه سافر لقضاء بعض الوقت فى (القاهرة) .. ثم يبدأ فى شرح ما حدث لها تدريجيًا كما فكر من قبل .

فهو لم يسبق له أن كذب على زوجته مطلقًا .. ولن يكون مستعدًا للكذب عليها مهما كانت الأسباب والنوايا الطيبة .

ثم إنها ستعرف عاجلًا أم آجلًا .. ومن الأفضل أن تعرف بأمر رحيل (صلاح) الآن قبل الغد ، لتتعود على تقبل الأمر الواقع ، والتأقلم عليه مع الوقت .

كل ما يحتاج إليه هو مزيد من الوقت ، للتفكير فى وسيلة يخفف بها وقع الخبر على نفسها .

وربما أتاح له الحمام الدافئ والمقعد الوثير فى غرفة مكتبه بالمنزل ، الاهتداء إلى هذه الوسيلة .

وعاد ليتأمل وجه زوجته النائمة مرة أخرى بمزيج من الحب والإشفاق .

إنه لا يذكر أنه قد حدثت بينهما خلافات ذات شأن ، طوال فترة حياتهما الزوجية ، إلا بخصوص هذا الابن العاق .. وكثيرًا ما كان يرضى بحكم زوجته ، ويتغاضى عن أخطاء ابنه لكى لا يحزنها .

ولكن ماذا يفعل ؟ وقد فاض به الكيل .. ولم يعد يمكنه التغاضى بعد الآن ، وبعد أن وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه ؟

وقال لنفسه :

ـ مسكينة أنت يا حاجة (فاطمة) .. ألهمك الله الصبر والقدرة على فهم الأسباب ، التى اضطرتنى إلى اللجوء لهذا التصرف .

وبينما هو يبدل ثيابه ، اصطدمت قدمه بإحدى الموائد الجانبية الصغيرة ، فسقطت على الأرض محدثة صوتًا أيقظ زوجته ، التى تنبهت إلى وجوده .. فنادت عليه قائلة :

ـ هل جئت يا (رشدى) ؟

وأسقط فى يده .. فها هى زوجته قد استيقظت من نومها .. وعليه أن يخبرها بما حدث ، ليرحم نفسه من التفكير ، وينهى هذا الأمر الذى يثقل على صدره .

ينهيه تمامًا .

★ ★ ★

٤ ـ القرار القاسى ..

تطلّع (رشدى) إلى زوجته لحظات ، قبل أن يهمس :

ـ لم أكن أرغب فى أن أوقظك من نومك .

(فاطمة) :

ـ بل كان يتعين عليك أن توقظنى ، حتى ألحق بصلاة العصر ..

(رشدى) :

ـ مازالت أمامك ساعة لكى تلحقى بصلاة العصر ..

(فاطمة) :

ـ هل تناولت غذاءك ؟

(رشدى) :

ـ كلّا :

(فاطمة) :

ـ إذن .. سأطلب من (مبروكة) أن تعده لكى نتناوله معًا ، بعد أن أفرغ من الصلاة .

(رشدى) :

ـ ليست لى رغبة فى الأكل .. تناوليه وحدك .

نظرت إليه زوجته بانزعاج قائلة :
ـ ماذا بك ؟
وخانته شجاعته فى التصريح لها بسبب ضيقه .. فأجابها قائلًا :
ـ لا شيء .. بعض الإرهاق فى العمل .
(فاطمة) :
ـ ومتى كان العمل يغير من ملامحك هكذا ؟ (رشدى) أجبنى بصراحة ، ماذا حدث ؟
أطلق زفرة قصيرة .. قبل أن يستجمع شجاعته قائلًا :
ـ إنه (صلاح) مرة أخرى .
وبدا الذعر على وجه الأم الحنون ، وهى تقول :
ـ ماذا فعل (صلاح) ؟
(رشدى) :
ـ سيادته لم يكتف بمخازيه التى يرتكبها فى (القاهرة) .. فجاء ليكررها هنا ، وليلحق المزيد من الإساءة بسمعتنا بين أهل البلد .
ازداد انزعاج الأم ، وهى تعود لتكرر عليه السؤال قائلة :
ـ قلت لك .. ماذا فعل ؟

(رشدى) :
ـ إنه على علاقة بابنة (البحراوى) .. هل تصدقين هذا ؟ (البحراوى) الذى كان أجيرًا لدينا ، يأتى اليوم ليهددنى .. إما أن أبعد ابنى عن طريق ابنته ، أو سيكون له معه شأن آخر .
(البحراوى) الذى عاش طوال حياته لا يجسر على أن يرفع عينه فى عينى .. يأتى اليوم ليقول لى إننى لم أحسن تربية ابنى ، وأن علىّ أن أوقفه عند حده .
وله كل الحق .. فأنا بالفعل لم أحسن تربيته ، وها هو الدليل على ذلك ، أحد الأجراء لدى تجرأ علىّ بسببه .
قالت زوجته بحزن :
ـ أمعقول !.. (صلاح) يفعل هذا ؟
قال لها زوجها بانفعال ظاهر :
ـ ولماذا لا يكون معقولًا ؟ أهذه هى المرة الأولى التى تعرفين فيها ، أن ابنك مستهتر ومقامر وعربيد ، ولا يصلح لأى عمل سوى ملاحقة الفتيات وموائد القمار وارتياد الملاهى ؟
قالت زوجته مستنكرة :
ـ أرجوك يا (رشدى) .

(رشدى) :.
ـ كم مرة أخبرتك، أن هذا الولد لا صلاح فيه .. وأنه بحاجة إلى نوع من الشدة فى التعامل معه وفى تربيته .. وأنه يتعين علينا ألا نترك له الحبل على الغارب هكذا .. ولكنك كنت تخالفيننى وتنحازين معه دائمًا ضدى .. وها هى ذى النتيجة .
(فاطمة) :
ـ أليس من المحتمل أن الفتاة هى التى ...
قاطعها مرة أخرى بحدة :
ـ هل ستدافعين عنه مرة أخرى ؟.. حتى لو كانت الفتاة هى التى أغوته .. أين ذهب عقله وضميره ؟ على الأقل كان يعمل حسابًا لأبيه وسمعته بين أهل البلد هنا .. ألم يكفه تلك الفتيات اللاتى يسلبنه نقوده فى (القاهرة) ؛ ليأتى ليلاحق فتاة قروية كهذه ، ويلتقى بها وسط الحقول وأمام أعين الفلاحين ؟
لقد اعترف هو نفسه أمامى اليوم بعلاقته بالفتاة .
(فاطمة) :
ـ وماذا فعلت معه ؟
(رشدى) :
ـ فعلت معه .. ما كان يتعين علىَّ أن أفعله منذ زمن بعيد .. طردته .

شحب وجه الزوجة ، وهى تضرب صدرها بيدها قائلة :
ـ طردته !؟
(رشدى) :
ـ نعم .. طردته من البلدة ، ومن منزلنا هنا وفى (القاهرة) .
ارتجفت المرأة المسكينة من شدة وقع الخبر عليها قائلة :
ـ تطرد ولدك .. كيف هان عليك أن تفعل هذا ؟
(رشدى) :
ـ هذا ما يستحقه ابنك تمامًا .
بكت الأم قائلة :
ـ كيف طاوعك قلبك على أن تقسو على ابنك هكذا ؟.. توصد بابك فى وجهه وتدفعه إلى مغادرتنا !؟
(رشدى) :
ـ وهل كنت أنتظر حتى تضيع هيبتى فى البلد ؟
قالت له زوجته من خلال دموعها :
ـ إن كل ما يهمك هو نفسك .. هيبتك وسط الناس .. اسمك .. سمعتك .. أما ابنك ، فتوصد بابك فى وجهه ، وتلقى به إلى الشارع كما لو كان كلبًا تقتنيه .
قال زوجها غاضبًا :

- لو كان لدى كلب أقتنيه ، لكان أكثر حرصًا علىَ ووفاء لى من ابنك المدلل .. الذى لا يراعى حرمة الناس ، ولا يصون النعمة التى يرفل فيها .

لقد نصحته كثيرًا ، وصبرت عليه كثيرًا ، ولكنه تمادى .. وهو الذى جنى على نفسه فى النهاية .

انخرطت الأم فى البكاء .. فأحس الزوج بالشفقة من أجلها .. مما دفعه إلى الاقتراب منها ، لكى يربت على ظهرها قائلًا :

- أرجوك يا (فاطمة) لا تزيدى من حزنى .. فأنت تعرفين أننى لا أحب أن أراك تبكين .

أتظنين أن ما حدث كان أمرًا هينًا علىَ ؟.. إن (صلاح) ابنى .. ويؤلمنى فراقه .. إلا أننى أهدف من ذلك إلى تقويمه .. أريد أن يعتمد على نفسه ، ويجرب الحياة الخشنة التى صنعت من شخص مثلى رجلًا ثريًا له اسم ومكانة .

إن تدليلنا له واعتماده الدائم علينا قد أفسده ، وسيؤدى فى النهاية إلى ضياعه .. إن فراقه لنا لبعض الوقت يهون فى سبيل إنقاذه من ضياعه واستهتاره .

قالت زوجته من خلال نحيبها :

- أعلم أنك تؤثر عليه (عمر) دائمًا .

(رشدى) :

- لأن (عمر) رجل ، وقادر على تحمل المسئولية منذ صغره .. كلاهما ولدى .. وأنا لا أريد لهما إلا الخير ، والاطمئنان على مستقبلهما بعد موتى .. فإن كنت قد وجدت منى بعض القسوة والشدة مع (صلاح) ، والتقدير نحو (عمر) ، فاعلمى أننى والد عادل .. لأننى أعامل كلًا منهما بما يستحقه ، وبما يعود عليه بالنفع فى النهاية .

ثم إننى بذلك أحمى (صلاح) .. فلو تركته لتهوره ، وإصراره على تلك العلاقة التى لا طائل منها مع ابنة (البحراوى) .. فربما أدى ذلك إلى قتله .. وفقداننا له نهائيًا .

شهقت الزوجة قائلة وهى تتطلع إلى زوجها :

- قتله ؟!

(رشدى) :

- نعم .. أنت لا تعرفين طريقة تفكير الناس هنا .. (البحراوى) لن يسكت على استمرار اتصال ابنك بابنته .. وقد يؤدى به الأمر إلى الإقدام على عمل أحمق .. فيحمل بندقيته ويتربص لابنك فى أحد الحقول ليقتله .

صاحت (الأم) :

- وهل يُقدم (البحراوى) على شىء كهذا ؟.. يقتل ابنك ؟

(رشدى) :

- نعم .. وماذا تظنين إذن ؟ إن حماية الأعراض هنا ، تلغى أية اعتبارات أخرى ، مهما كانت .

أحست (الأم) بشىء من الخوف يعتريها .. لدى سماعها لهذا .. والتمست شيئًا من العذر لزوجها لأول مرة ، ففراق ابنها لبعض الوقت أهون من فقده إلى الأبد .

ووضع (رشدى) يده على جبينه وهو يقول بضيق :

- لو أنه تزوج من ابنة أختك ، لكان الآن أسعد الناس بها ، وربما أصلحت فيه ما فشلنا نحن فى إصلاحه .

قالت زوجته :

- ألا يمكنك أن تحاول البحث عنه ، وتجعله يقيم على الأقل فى شقة (القاهرة) لبعض الوقت ؟ فماذا يفعل هذا المسكين ، وهو لا يجد الآن مكانا يأوى إليه ، ولا موردًا يملكه بعد أن كان يعتمد علينا كليًا .

(رشدى) :

- إذن فإننى بذلك لا أكون قد فعلت شيئًا .. أتركه يقيم بشقة (القاهرة) وأرسل إليه نقودًا ، ليزداد فسادًا وضياعًا ، دون رقيب ولا حسيب ، بعيدًا عن أعيننا ؟.. أرجوك يا (فاطمة) أن تساعدينى فى إصلاح هذا الولد .. وإن جاءك ليطلب نقودًا فلا تعطيه جنيهًا واحدًا .. حتى

نتأكد من أنه قد سلك الطريق القويم ، وتخلى عن حياة الضياع التى كان يعيشها .. وقتها فقط أستطيع أن أصفح عنه ، وأدعوه لمشاركتى مسئولية إدارة ممتلكاتى بجوار أخيه .. بل وربما تركت لهما تولى هذه المسئولية كاملة .. ولكن بعد أن أكون مطمئنًا إلى أنهما يستطيعان تحملها سويًا بالفعل .

ولم يُجد هذا القول مع قلب (الأم) الملتاع .. فعادت للبكاء ، بحرارة أشد .

ونظر إليها (رشدى) بحزن ، غير أنه لم يواسها هذه المرة ، لتعلم أنه قرر أمرًا ولن يتراجع فيه .

وبعد نصف ساعة جلس (رشدى) إلى مائدة الطعام ، وأمامه ولده (عمر) ، أما زوجته فلم تنزل ولزمت غرفتها .

وسأل (عمر) عن أمه فقال له أبوه :

- أمك متعبة الآن ، وسوف تتناول طعامها فيما بعد .

قال (عمر) بقلق :

- ماذا ألم بها ؟

(رشدى) :

- إنها حزينة لأننى طردت (صلاح) من المنزل .

نظر (عمر) إلى والده بجزع قائلًا :

- وهل طردت (صلاح) من المنزل بالفعل يا أبى ؟

قال (رشدى) وهو يقلّب الطعام أمامه ، دون أن يشعر بأى ميل إلى تناوله :

- نعم .

(عمر) :

- ولكن ...

قال (رشدى) وقد بدأ هذا الأمر يضايقه :

- ماذا ؟ هل سأقدم مذكرة تفسيرية لك أنت الآخر فى هذا الشأن ؟

(عمر) :

- يا أبى (صلاح) أخى ، و ...

قاطعه (رشدى) :

- وهو ابنى أيضًا .. وأنا أرى أن ما فعلته كان لصالحه .. فهو بحاجة لبعض الوقت ، لكى يعتمد على نفسه .

(عمر) :

- هل اتفقت معه على وقت محدد يغادرنا خلاله ، ثم يعود إلينا مرة أخرى ؟

(رشدى) :

- فى الحقيقة لم يحدث هذا .. ولكن المسألة ستكون مسألة وقت .. أريد منه فقط أن يجرب شيئًا من الحرمان ،

ويحاول الاعتماد على نفسه .. والأمر فى النهاية سينتهى إلى إحدى نتيجتين ، إما أن يجرب بعض العرق والكد والحياة الجادة ، بعيدًا عن حياته السابقة العابثة اللاهية فيعود إلينا أكثر صلابة ، وإما أن يذوق طعم الحرمان والحاجة اللذين يشعر بها الآخرون ، فيأتى إلينا ليطلب الصفح ، وقد قدّر قيمة ما كان يتوفر له هنا .. ولكن فى هذه المرة سيتعين عليه أن يعمل ويتعب لكى يحصل عليه مرة أخرى .. وفى الحالتين ، يكون قد استفاد من الدرس الذى أهدف إلى حصوله عليه بإبعادى له عن المنزل .

(عمر) :

- وإذا ركب رأسه وفضل الجوع والحرمان ، مع عدم العودة إلينا مرة أخرى ؟ فأنت تعرف (صلاح) يا أبى ، إنه عنيد وشديد الاعتداد بنفسه .

(رشدى) :

- لن يستطيع أن يستمر طويلًا فى عناده وصلابة رأسه ، إذا ما جرب طعم الجوع والحرمان ، فالجوع والحرمان كافيان لإذابة أشد الرءوس عنادًا وصلابة .. سلنى أنا يا بنىّ ، فقد ذقت طعم الحرمان فى حياتى .. ولولا هذا ما كان أبوك الآن على ما هو عليه .

صدقنى أنا لا أبغى سوى مصلحة أخيك .. وإن كنت

لا أستطيع أن أنكر أننى متألم لرحيله عنا ، ولم أكن أرغب فى أن أكون قاسيًا معه على هذا النحو .. ولكن ماذا أفعل وقد أعيتنى الحيلة معه ؟

ولم يدر (عمر) ماذا يقول .

كان يعلم عن أخيه ما لا يعلمه أبوه .. وقد دارى عنه الكثير من مخازيه .. رفقًا بأبيه أولا ، وأملا فى انصلاح حال أخيه .

وماذا يقول وهو يعتقد أن ما حدث هو ما كان يستحقه (صلاح) بالفعل .. لقد تمادى فى أخطائه .. وأعرض دائمًا عن النصيحة .. ولم يشفق على سمعته وسمعة أبيه ، ولا على هناء أمه التى تحبه ، والتى كانت تدافع عنه دائمًا كلما ارتكب وزرًا وحاول والده أن يعاقبه عليه .

لقد رفض أن يشاركه للعمل فى مصنعى أبيه ، والإشراف على رعاية أرضه .. وقد اضطلع هو بهذا العمل منذ الصغر .. وكان يشارك العمال عملهم بيده .

ولقد جرب (صلاح) أن يفعل هذا لمدة أسبوع واحد ، تحت ضغط من أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يستمر لأكثر من هذا الأسبوع .. وقال إنه لم يخلق لعمل كهذا .. ثم أسرع بالهروب إلى (القاهرة) كعادته .. ليقضى لياليه فى ملاهيها ، وعلى موائد القمار . أفليس من العدل أن يطرد

من بيت لم يعرف له حقًا ولا كرامة ، وأن يشقى فى الأرض عسى أن تعلمه الأيام قيمة العمل والكفاح ؟

لقد وقف كثيرًا بجانب (صلاح) ونصره دائمًا ظالمًا أو مظلومًا .. وكان يدافع عنه أمام أبيه .. إلا أنه لم يغفر له ذلك الحرج الذى سببه لابنة خالته (نجلاء) بعد تخليه عنها .. برغم حبها له .

وكان (عمر) أيضًا يحب (نجلاء) .. وإن طوى هذا الحب فى قلبه ، وأخفاه عنها وعن الجميع ، بعد أن عرف أنها تحب أخاه ، وبعد أن رأى رغبة أسرته فى اقترانها منه .

وبرغم أنه كان يعلم أن (صلاح) لا يستحقها .. وهى الإنسانة الرقيقة التى تتمتع بصفات ومزايا ، قلما تتوافر فى فتاة أخرى .. إلا أنه كان يظن أن الحب الذى جمع بين الاثنين كفيل بتغيير (صلاح) ، وجعله يستحق فتاة مثلها .

ولكن سُرعان ما تبين له أن هذا الحب كان زائفًا من جانب أخيه .. وأن (صلاح) لم يقدر (نجلاء) حق قدرها .

ولكن حتى بعد انتهاء مشروع الارتباط ، الذى كان سيجمع بين (صلاح) و (نجلاء) ، فإن (عمر) لم يجد فى نفسه الجرأة والشجاعة لكى يفاتحها ، أو يفاتح أيًا من أبويه بحقيقة مشاعره نحوها . خاصة وقد رأى أنه برغم

ما فعله أخوه معها ، فإنها ظلت محتفظة بمشاعرها نحوه ،
وإن أخفتها فى رداء من الكبرياء الجريح .

وكان يعلم جيدًا أنها ما زالت تتعلق بالأمل فى عودته
إليها .

وسأله أبوه وقد لاحظ شروده قائلًا :

- فيم تفكر يا (عمر) ؟

هز رأسه قائلًا :

- لا شىء .. لا شىء يا أبى .

(رشدى) :

- أما زلت تلومنى يا بنى فى قرارة نفسك ، على
ما فعلته مع أخيك ؟

(عمر) :

- إننى أقدر نبل غايتك يا أبى .. وأعرف أن ما فعلته
لم يكن يهدف إلا لتحقيق مصلحة (صلاح) فى النهاية .

ثم تطلع إلى الغرفة العلوية قائلًا :

- إن ما يقلقنى الآن هو أمى .. لابد أنها فى حالة سيئة
بسبب ما حدث .

(رشدى) :

- إن وقع الخبر عليها كان شديدًا بالفعل .. ولكن أمك
سيدة مؤمنة وحكيمة .. ولابد أنها ستدرك فى النهاية ،

وبعد أن تهدأ مشاعرها ، إننى قد فعلت الشىء الصحيح ..
وقد يأتى اليوم الذى تشكرنى فيه على فعله .

(عمر) :

- سأصعد إليها .

(رشدى):

- كلا .. لا داعى لذلك الآن .. فصعودك سيزيد من
تعقيد الموقف .. فلندع لها الفرصة كاملة لكى تفرج عن
أحزانها .

وعاد ليقلب الطعام الموجود أمامه بملعقته ، دون أن
يجد لديه أية رغبة فى تناوله .. ثم استطرد قائلًا :

- هل اتفقت مع المقاول الذى سيأتى .. لنقل البلاط
والطوب من مصانعنا ؟

(عمر) :

- نعم وسيأتى يوم الخميس لنقلهما .

(رشدى):

- إياك أن تكون قد عدت للاتفاق مع ذلك الرجل
(عبد الفتاح) .

(عمر) :

- كلا .. لقد اتفقت مع شخص آخر من (بنى سويف)
وقد وافق على كل شروطنا .

(رشدى) :

ـ حسن .. تناول طعامك أولا .. ثم نذهب إلى غرفة المكتب لنتفق على التفاصيل .

وأخذ كل منهما يتظاهر بتناوله لطعامه ، دون أن يأكل أحدهما شيئًا حقيقيًا .. فقد كانت مشاعرهما المتضاربة بشأن (صلاح) ، ما زالت طاغية على تفكيرهما .. وقد أفسدت عليهما أية رغبة فى تناول شىء مما هو موضوع أمامهما .

وانتهى العشاء قبل أن يبدأ .

* * *



٥ ـ مازلت أحبه ..

كانت الساعة تقترب من السابعة مساء ، عندما دخل (عاصم فتح الله) على ابنته (نجلاء) ، وهى جالسة فى حجرتها تطالع أحد الكتب .

سألها قائلًا :

ـ ماذا تقرئين ؟

ابتسمت له وهى تبعد الكتاب عن عينيها قائلة :

ـ إنه كتاب عن علم الاجتماع لأحد المفكرين الإنجليز .

ابتسم الأب وهو يجلس فى المقعد المواجه قائلًا :

ـ ألا يوجد ما يستهويك سوى هذه الكتب الجادة والمتخصصة ؟

(نجلاء) :

ـ ولكن علم الاجتماع يدخل فى صميم تخصصى .. هل نسيت أننى خريجة آداب قسم اجتماع ، وأنا فى طريقى للتعيين كمدرسة فى هذا المجال ؟

(الأب) :

- ولكن ليس إلى حد أن يشغل هذا التخصص كل وقتك وساعات فراغك .

(نجلاء) :

- علم الاجتماع علم إنسانى فى المقام الأول .. واهتمامى به يتعدى مجال الدراسة والعمل فقط .. فأنا أعشق هذا المجال .

(الأب) :

- ولهذا كنت متفوقة فى دراستك دائمًا .. فمن السهل على الإنسان أن يتفوق فى المجال الذى يحبه .

صمت الأب برهة قبل أن يستطرد قائلًا :

- هل تعرفين من اتصل بى فى التليفون اليوم ؟

قالت (نجلاء) بسرعة :

- لابد أنها طنط (سعاد) .

(الأب) :

- كلا لقد كان زوج خالتك .. وقد أخبرنى أن خالتك ليست على ما يرام ، وفى حالة نفسية سيئة للغاية .

نظرت إليه الفتاة بجزع قائلة :

- خالتى (فاطمة) ؟! هل أصابها مكروه ؟!

تنهد الأب قائلًا :

- نعم .. يبدو أن (رشدى) قد تشاجر مع ابنه مرة أخرى .. وطرده من المنزل .

واستيقظت مشاعر كانت كامنة فى نفس الفتاة ، وهى تقول :

- (صلاح) .. هل وصل الأمر بينهما إلى هذا الحد ؟

(الأب) :

- نعم .. (رشدى) لم يشأ أن يقصّ التفاصيل التى أدت إلى حدوث هذا ، ولكنه رجانى أن أسمح لك بالذهاب إلى منزلهم ، لقضاء بضعة أيام بجوار خالتك .. علّ هذا يؤدى إلى حدوث بعض التحسن فى حالتها النفسية والصحية .. خاصةً وأنها هى التى طلبت حضورك .

(نجلاء) :

- أرجو أن تسمح لى بذلك يا أبى .. فسوف أكون شديدة القلق لو لم أذهب للاطمئنان على خالتى ، ومواساتها فى فراقها لابنها .

(الأب) :

- إننى لا أعارض فى ذلك يا بنيتى ، غير أننى لم أكن أحب أن تذهبى إلى هذا المنزل مرة أخرى ، بعد ما حدث من ابنهم .

(نجلاء) :

ـ ما حدث لم يكن لخالتى ولا لزوج خالتى دخل فيه ، فأنت تعلم مدى حبهما وإعزازهما لى .. ثم إن ما حدث قد انتهى ، وأعتقد أن كلًا منا .. أنا و (صلاح) لم يكن يلائم الآخر .. المهم الآن أن أكون بجانب خالتى فى محنتها .

(الأب) :

ـ حسن .. اذهبى إليهم يا (نجلاء) ، ربما استطعت أن تخففى عن خالتك بعض الشىء ، المهم لا تتأخرى هناك أكثر من يومين .. فأنا لا أستطيع أن استغنى عنك طويلًا كما تعرفين .

ثم ابتسم وهو يردف قائلًا :

ـ اللهم إلا إذا كنت ذاهبة إلى بيت زوجك المنتظر .

سافرت (نجلاء) إلى منزل خالتها فى البلدة التى تجاور بلدتهم ..

كانت فى الثالثة والعشرين من عمرها ، وتتمتع بجمال ملائكى هادئ .. وقد اضطلعت بشئون البيت بعد وفاة والدتها منذ ستة أعوام .. وكانت إنسانة رشيدة عاقلة ، تتميز بالحكمة والمشاعر الإنسانية الدافقة .

وبرغم ما قالته لأبيها عن انتهاء أحاسيسها تجاه (صلاح) ، مع انتهاء ارتباطها به ، إلا أنها كانت تعلم

جيدًا ، أنها كاذبة فى هذا الشأن ، وأن قلبها ما زال متعلقًا به ، برغم كل ما تكشف لها فيه من عيوب ومساوئ .. حاولت دائمًا أن تنكرها وأن تصم آذانها عنها .

استقبلها زوج خالتها بترحاب شديد قائلًا :

ـ أهلًا بك يا بنيتى .. أشكرك على تلبيتك لدعوتى لك بالحضور .. وأعتقد أنه سيكون لحضورك تأثير كبير على تحسن حالة خالتك المعنوية .

سألته قائلة :

ـ أين هى ؟

(رشدى):

ـ فى غرفتها .. اذهبى إليها .. فهى لا تمل من السؤال عنك .

ولما رأت الحاجة (فاطمة) ابنة أختها تدخل عليها حجرتها ، وثبت قائمة وكانت جالسة بجوار النافذة ، تتطلع إلى الحديقة الصغيرة السحيطة بالمنزل ، وفى عينيها نظرة شاردة .

وصاحت قائلة وهى تحتضن (نجلاء) :

ـ حبيبتى (نجلاء) .. كيف أشكر لك حضورك .. لقد كنت بحاجة ماسة إلى رؤيتك ووجودك بجانبى هذه الأيام .

واصطحبتها لتجلسها بجوارها وهى تقول :

ـ لقد ألححت على (رشدى) لكى يتصل بأبيك ، كى يسمح لك بالحضور إلىَ .

(نجلاء) :

ـ ما كان يمكننى أن أرفض دعوتك .. أو أتخلى عنك وأنت فى مثل هذه الظروف .

قالت لها (خالتها) :

ـ هل عرفت أن (صلاح) قد ترك البيت ؟

ردت (نجلاء) وفى عينيها نظرة إشفاق :

ـ نعم .. ولقد حزنت من أجل ذلك .. خاصة وأنا أعلم مدى تعلقك بـ (صلاح) وحبك له .. ولكننى لا أريد منك أن تقلقى ، (صلاح) رجل ولم يعد طفلًا صغيرًا يخشى عليه .

إنه يستطيع تدبير أمره .. ولا بد أنه سيعود لكم لا محالة .. فلا داعى لكل هذا القدر من الحزن ، وعليك أن تراعى صحتك .

(فاطمة) :

ـ وكيف يتسنى لى ألا أحزن على (صلاح) ؟ وقد خرج مطرودًا مهانًا من أبيه ، إن (صلاح) تعود على رعايتنا له .. وليس هو بالشخص الذى يستطيع أن يدبر أموره .. خاصة وقد غادر المنزل بلا مورد تقريبًا .

(نجلاء) :

ـ إذن فلا بد أنه سيعود فى أقرب وقت .

(فاطمة) :

ـ ليت ما تقولينه يكون صحيحًا .. فأخشى ما أخشاه ، أن يكون الأثر الذى تركه والده فى نفسه ، عندما طرده من المنزل ، كان قاسيًا على نحو يحول دون عودته إلينا ، خاصة وأنه بالرغم مما يقال عن أن (صلاح) قد نشأ مدللًا ومستهترًا ، إلا أنه كما أعرفه شديد الكبرياء والاعتداد بالنفس .

(نجلاء) :

ـ ولكن ما الذى دفع عمى إلى التصرف معه على هذا النحو ، وطرده من المنزل ؟

ترددت الحاجة (فاطمة) برهة قبل أن تقول :

ـ لقد أخبره أحد أهالى البلدة ، بأنه على علاقة عاطفية بابنته .. وأعتقد أن هذا القول فيه الكثير من المبالغة .. والأهالى هنا يضخمون الأمور ، ويصورون أن مجرد وقوف شاب مع فتاة ، والتحدث إليها ، بمثابة علاقة عاطفية ينسجون من ورائها القصص والروايات .

ونظرًا للخلافات العديدة التى كانت بين زوجى و (صلاح) .. فإن ما قاله له هذا الرجل قد زاد من ثورته عليه ، ودفعه إلى الاحتداد معه ، وطرده من المنزل .

شحب وجه (نجلاء) لدى سماعها بأمر علاقة (صلاح) بهذه الفتاة ، وهو أمر أقرب إلى التصديق منه إلى النفى ، نظرًا لما تبينته فى شخصية (صلاح) .. برغم أنها كثيرًا ما كانت تفعل مثل خالتها فى الماضى ، وتحاول إنكار الحقائق التى تعرفها عنه ، وإغماض عينيها عما تراه واضحًا .

أما الحاجة (فاطمة) فقد كانت خجلة من نفسها ، لأنها كانت تعرف أنها هى أيضًا تنكر الحقيقة . وتكذب على الفتاة .

وربما كانت تفعل ذلك فى محاولة يائسة منها ، للحفاظ على صورة ابنها .. وإشفاقًا على الفتاة ، التى تعرف جيدًا أنها ما زالت تحبه ، وفى همس قالت لابنة شقيقتها :

ـ لو كنت قد طاوعتنى يا بنيتى ، وتأنيت قليلًا لإصلاح الأمر بينك وبين (صلاح) ، دون أن يدفعك كبرياؤك إلى الاندفاع فى مشاركته حماقة فسخ خطبتك .. فربما لم يكن قد حدث ما حدث .

ولم يكن لينظر إلى تلك الفتاة ، التى تسببت فى خروجه من البيت .

قالت لها (نجلاء) بصوت هادئ النبرات :

ـ هذه قصة قديمة يا خالتى ، يستحسن أن نطوى صفحاتها .. المهم الآن هو صحتك أنت .

قالت لها خالتها :

ـ صحتى لن تتحسن إلا بعودة (صلاح) إلى المنزل ، واطمئنانى عليه ، إننى أحتاج إليك يا بنيتى .

(نجلاء) :

ـ وأنا تحت أمرك فى أى شىء تطلبينه يا خالتى .

(فاطمة) :

ـ تحدثى إلى عمك (رشدى) ، واطلبى منه أن يبحث عن (صلاح) ، وأن يعفو عنه .. (صلاح) طيب القلب ولكنه بحاجة لمن يفهمه .

(نجلاء) :

ـ سأفعل ما تريدينه يا خالتى ، وإن كنت لا أظن أننى سأكون أكثر إعزازًا لدى عمى (رشدى) من إعزازه لك .

(فاطمة) :

ـ علينا أن نحاول نحن الاثنتين التأثير عليه .. إن (رشدى) عنيد ، وصعب المراس ، ولكنه يحبك كابنته .. وكان يتمنى دائمًا أن تكونى زوجة لـ (صلاح) ، فتوسلى إليه أن يعفو عنه ، ويعمل على إرجاعه إلى المنزل .

أكبر الظن أنه فى مكان قريب من هنا .. وعزة نفسه هى التى حملته على مغادرة المنزل ، وهى التى تمنعه من العودة إليه .

(نجلاء) :

ـ حسنًا يا خالتى ، سأتحدث مع عمى (رشدى) .

(فاطمة) :

ـ إذن بادرى بالذهاب إليه .. ولا تدعى فرصة تمر ، دون أن تلينى فيها قلب الأب على ابنه .

ودعاها (رشدى) لتناول الشاى معه .. فجلست فى الحديقة حيث سألها قائلًا :

ـ لعل زيارتك لها تكون قد خففت بعض الشىء من أحزانها .

(نجلاء) :

ـ إذا أردت ـ حقًا يا عمى ـ أن تخلصها من حزنها ، وتعيد إليها الابتسامة ، فعليك أن تصفح عن (صلاح) ، وتعمل على إعادته إلى المنزل .. فهذا هو فقط الذى سيذهب بحزنها .

تنهد (رشدى) قائلًا بمرارة :

ـ كان يتعين علىّ أن أفعل ما فعلته .. وإلا أسلمت (صلاح) إلى الضياع .. ضياعه ، إما بيده ، أو على يد غيره .. وأظن أنك معى ، فى أنه قد آن الأوان لوضع حد لتصرفات (صلاح) .. فليتألم قليلًا .. ويحاول مرة واحدة الاعتماد على نفسه بعيدًا عنا .. فالألم هو الذى يصوغ الرجال .

(نجلاء) :

ـ ولكن خالتى ...

قاطعها قائلًا :

ـ خالتك يجب أن تساعدنى على ذلك .. فأنا لم أهدف من ذلك سوى مصلحة ابنها .

أطرقت (نجلاء) مقتنعة بما يقول زوج خالتها .

أما هو فقد تأملها مليًا وفى عينيه نظرة تقدير وهو يقول :

ـ يا لك من فتاة طيبة .. رقيقة الإحساس .. إن حضورك إلى هنا ودفاعك عن (صلاح) يكشف عن طيب معدنك .

لقد أضاع (صلاح) على نفسه فرصًا كثيرة .. وكنت أنت أكبر فرصة أضاعها ، خبرينى كيف حال والدك ؟

عرفت (نجلاء) أنه يرغب فى تغيير الموضوع ، ولا يريد أن يعدل عن قراره ، فلم تحاول الإلحاح عليه .

ومرت الساعات موحشة ..

وكان (عمر) فى القاهرة لقضاء بعض الشئون المتعلقة بالعمل ، فجلس (رشدى) وزوجته وضيفتهما صامتين إلى مائدة العشاء ، وقد ظل رحيل (صلاح) عن المنزل فارضًا نفسه عليهم .

لم تكن (نجلاء) تدرك مقدار ما يكنه لها (عمر) من حب ، وإن كانت موقنة من أنها ما زالت تهوى (صلاح) ، برغم كل عيوبه .. وحتى بالرغم من علمها بعلاقته الأخيرة بتلك الفتاة التى تسببت فى إبعاده عن المنزل .

تحبه على الرغم من كل شىء ..

كل شىء ..

* * *



٦ ـ ليتنى أنساك ..

توجه (رشدى) إلى مكتبه بعد العشاء ، لا ليقرأ شيئًا أو يقضى بعض الأعمال كما ادعى .. بل ليرحم نفسه من النظر إلى زوجته الحزينة .. فهو يحبها ويقدرها على نحو لا يطيق معه أن يراها متألمة .

أما (نجلاء) فقد ظلت إلى جوارها تحاول أن تخفف عنها ، وتهوّن من وقع ما حدث ، وهى تمنيها بعودة (صلاح) القريبة .

وألحت عليها خالتها بأن تتركها وتذهب إلى النوم ، ولكنها أبت .. حتى اضطرت فى النهاية إلى التظاهر بالنوم ، لكى تتيح لها الذهاب إلى غرفتها ، والراحة من عناء السفر .

ولم تتركها (نجلاء) ، إلا بعد أن أيقنت من أن زوج خالتها قد غادر غرفة المكتب ، وكان فى طريقه إلى غرفة زوجته ، عندما وجدها لدى الباب ، فسألها قائلًا :

ـ ألم تنامى بعد يا (نجلاء) ؟.. إنك لم تستريحى منذ

أن وصلت من السفر يا بنيتى ، وقد أرهقناك معنا بمشكلتنا .

قالت (نجلاء) بصوت هامس :

ـ ما كان لى أن أترك خالتى وهى فى هذه الحالة .

وسألها قائلًا ، وهو يهمس أيضًا :

ـ هل نامت ؟

(نجلاء) :

ـ أعتقد ذلك .. أرجو أن تكون رحيمًا بها يا عمى ، وتهوّن عليها الأمر ، فأنت تعلم مدى حبها لـ (صلاح) .

(رشدى) :

حسن يا بنيتى .. اذهبى أنت إلى غرفتك لتستريحى .

مضت (نجلاء) إلى الغرفة المعدة لها .. حيث ألقت بجسدها المتعب على الفراش ، ولكنها لم تعرف النوم .. فقد ظلت تفكر فى (صلاح) .. كانت غاضبة عليه ، وحزينة من أجله .. إنه فى النهاية ابن خالتها ، وأمره يهمها .. ولم تكن ترغب أبدًا فى أن تصل الأمور بينه وبين والده إلى هذا الحد .

ولكن هل يرجع اهتمامها حقًا لكونه ابن خالتها فقط ؟

لماذا تنكر الحقيقة المستقرة فى قلبها ، والتى تحاول أن تخفيها حتى عن نفسها ؟

إنها تحبه ..

وهى غاضبة عليه لأنه أنكر حبها له .. وأنكر كل مشاعره السابقة نحوها .

وغاضبة أيضًا لأنه فضل فتاة أخرى عليها .

ربما كانت هى أيضًا مخدوعة فيه ..

ربما لم تكن أكثر من نزوة من نزواته ..

ولكنها لا تستطيع أن تتجاهل أنه فى الوقت الحالى ، منشغل بفتاة أخرى ، أصبحت تستحوذ على اهتمامه وتفكيره .

إنها حتى الآن لا تعرف لماذا عاملها (صلاح) بهذه القسوة والجحود ؟

لقد كانت تحبه .. وكانت تعرف الكثير من أخطائه وعيوبه .. وترسخ لديها اعتقاد جازم بأنها قادرة على تغييره .. لكنه لم يمنحها الفرصة .. ولم يساعدها على محاولة تغييره .. بعد أن سارع فى فصم عرى الرابطة ، التى كانت فى طريقها لكى تتحقق بينهما .

كم سهرت الليالى وهى تحلم بحياة زوجية مستقرة وهادئة .. كلها حب ومودة ..

وكم تخيلته زوجًا لها ، تمنحه من حنانها وحبها الكثير مما كانت تحمله له .

وكم رأته فى أحلامها ، وقد تخلى عن طبيعته الهوائية ، واندفاعه وراء نزواته ، وأصبح محبًا مخلصًا ، يبادلها مشاعرها بنفس الصدق وبنفس القوة .. بعد أن يدرك قيمة حبها وإخلاصها له .

ولكن (صلاح) تخلى عنها .. وحرمها من تحقيق حلمها معه .. ومن تحقيق آمالها فيه .

تركها وأطلق العنان لنزواته .. واندفع وراء قصة جديدة مع فتاة أخرى ، لن يلبث أن يملها ويتخلى عنها هى أيضًا مع مرور الوقت .

ولكن أيًا من تلك الفتيات اللاتى عرفهن ، واللاتى سيعرفهن فيما بعد ، لم تكن لتحقق له السعادة التى كانت تحلم بأن تحققها له .. ولم تكن لتملك القدرة على تحمل عناء طبيعته المتقلبة ، ومشقة تغيير مساوئه ، بقدر استعدادها وقدرتها على تحمل ذلك .. لذا فمن حقها أن تكون غاضبة عليه .

ولكنها أيضًا لا تملك سوى أن تحزن من أجله .. لا لكونه ابن خالتها كما تحاول أن تدعى وتكذب على نفسها .. ولكن لأنها ما زالت تحبه بالرغم من كل شىء .

كان الهدوء شاملًا والسكون يعم المنزل .. وحاولت (نجلاء) أن تساعد نفسها على النوم .. إلا أنها سرعان ما تنبهت إلى صوت يأتى أسفل غرفتها تمامًا .

كانت غرفة المكتب الخاصة بزوج خالتها ، هى التى تقع تحت غرفتها مباشرة .. وظنت أنه عاد إلى مكتبه مرة أخرى ، وقد عجز بدوره عن النوم .. فأشفقت عليه ، ربما كان الرجل أكثر تألمًا من زوجته .. وما يزيد الأمر مشقة عليه ، أنه يحاول أن يخفى آلامه ، ويتظاهر بالصلابة والجلد .

وقررت (نجلاء) أن تهبط إليه لتطالبه بالصعود إلى غرفته ، والخلود إلى النوم بضع ساعات ، يريح فيها جسده المتعب وعقله المنهك ، فقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

فارتدت معطفًا منزليًا فوق ثياب نومها .. ثم هبطت الدرج متجهة إلى غرفة المكتب .

ولكن لدهشتها الشديدة ، وجدت الغرفة مظلمة وغير مضاءة .. وتساءلت عما إذا كان زوج خالتها ينوى قضاء ليلته فى غرفة مكتبه .

وسرعان ما لاحظت بصيصًا من الضوء بالداخل .. فسارعت بفتح باب الغرفة واقتحامها .. وكانت شجاعة لا تعرف الخوف بالرغم من طبيعتها الرقيقة ، ولكنها تجمّدت فى مكانها ، عندما رأت شخصًا يحمل مصباحًا ضوئيًا خافتًا فى يده ، وقد فتح باب الخزينة المجاورة

للمكتب ، وعمل على أخذ النقود الموجودة بها ، ولم يكن هذا الشخص سوى (صلاح) .

ابن خالتها .

وكادت أن تصرخ وقد هزتها المفاجأة وهى تقول :

ـ (صلاح) .

وبوغت (صلاح) لرؤيته لها ، فتجمد فى مكانه ، وتوقفت يداه عن تناول إحدى الرزم المالية ، وقد بدا فى حالة شديدة من الارتباك .

ظل كل منهما يتأمل الآخر وهو لا يدرى ماذا يقول .

وأخيرًا قطعت (نجلاء) حالة الصمت هذه ، وهى تقول له مستنكرة :

ـ (صلاح) .. ماذا تفعل ؟

قال (صلاح) مضطربًا :

ـ (نجلاء) .. لم أكن أتوقع وجودك هنا .

قالت له (نجلاء) :

ـ لقد جئت لمواساة أمك الحزينة من أجل فراقك .. وأبيك الذى اضطرته إلى التصرف معك تصرفًا كان قاسيًا على نفسه وعلى مشاعره .

جئت من أجل التخفيف بعض الشىء عن أهل هذا البيت ، الذى جلبت له الشقاء .

وياليتنى لم أجىء .. ليتنى لم أحضر إلى هنا مطلقًا ، لكى أراك وأنت تصل إلى الدرك الأسفل .

أراك لصًا قد جئت لسرقة مال أبيك .

إننى لا أصدق .. هل وصل بك الأمر إلى هذا الحد ؟.. تتسلل إلى منزلك كاللصوص ، لكى تسطو على مال أبيك .. تسطو على مال الرجل الذى لم يبخل عليك يومًا بمال أو مساعدة ، برغم كل ما كان يعرفه عنك من مساوئ ، وبالرغم من كل ما سببته له من متاعب ؟

قال (صلاح) وقد تخلص من وقع المفاجأة على نفسه ، ومن إحساسه بالخجل :

ـ (نجلاء) اخرجى من هنا وعودى إلى غرفتك .. فلست بحاجة إلى المزيد من المواعظ .

إن هذا المنزل لم يعد منزلى منذ أن طردنى أبى منه .. وأنا بحاجة ماسة إلى النقود ، لكى أغادر (مصر) بأسرها .. إننى سأبدأ حياة أخرى فى بلد آخر بعيدًا عن هنا .

(نجلاء) :

ـ تبدأ حياة جديدة بنقود مسروقة ؟.. إن هذه النقود ستجعلك دائمًا لصًا على الأقل فى نظر نفسك ، مهما سافرت ومهما صنعت لنفسك من حياة جديدة فى المستقبل .

(صلاح) :
- هذه النقود من حقى .. مثلى فى ذلك مثل (عمر) الذى ترك له أبى الحبل على الغارب فى نقوده ، يصرف كيفما يشاء ، ويأخذ كما يريد .
(نجلاء) :
- بل ليس لك أى حق فى هذه النقود ، فهى أموال أبيك .. أبيك الذى تعب وكد وشقى لكى يجمعها ، ويصرف منها عليك ، وعلى أخيك ، وعلى تلك الأسرة التى تنتمى إليها .. وكنت دائمًا تأخذ دون مقابل ، وتنفق ببذخ على أهوائك ومخازيك .
وإذا كان قد أولى أخاك ثقته ، وتركه يشاركه فى إدارة أمواله .. فهذا لأن (عمر) أهل لهذه الثقة .. وهو لم يفكر يومًا واحدًا فى أن يأخذ قرشا واحدًا خلسة من مال أبيك ، كما تفعل أنت الآن .. إنه لا يأخذ إلا ما يعطيه هو له .. وهو يعمل دائمًا فى مقابل ما يأخذه بعكسك أنت .
قال (صلاح) بعصبية وضيق :
- كيف تتحدثين معى بهذه الطريقة ؟ ما شأنك أنت بعلاقتى بأبى وأخى ؟
(نجلاء) :
- شأنى أننى ابنة خالتك .

(صلاح) :
- ابنة خالتى .. أم أنك مازلت تضمرين لى الحقد ، لأننى لم أرد أن أستمر فى خطبتى لك ؟
ارتسمت ملامح الألم على وجهها لدى سماعها لهذا القول الجارح .. وقالت له بصوت مختنق :
- سامحك الله .
أحس (صلاح) بالندم لما قاله .. ولم يدر كيف يعتذر عنه .. فى حين أردفت هى قائلة :
- على كل حال لن أخرج من هنا ، إلا بعد أن تعيد تلك النقود التى أخذتها .
(صلاح) :
- وإذا لم أعدها ؟
قالت بإصرار :
- ستعيدها يا (صلاح) .
(صلاح) :
- إن صوتك يحمل نبرة تهديد .. هل تنوين أن ترفعى صوتك بالصياح لتعرفيهم بالأمر ؟
(نجلاء) :
- كلا يا (صلاح) .. لن أرفع صوتى بالصياح .. لأننى لن أرضى لك الفضيحة أمام أبيك وأمك وأمام

الخدم .. برغم أننى بذلك أكون مثل من يتستر على جريمة .
ولأننى أعرف أن بداخلك إنسانًا نظيفًا ، وأن ضميرك لن يسمح لك بسرقة أبيك .

وأفسحت له الطريق ، وهى تشير إلى الباب مستطردة :

- هل تريد أن تذهب بتلك النقود ؟.. حسن اذهب .. لن أمنعك ولن ألفت الأنظار إليك .. سأتركك تذهب كما تشاء .. وسيكون حساب ضميرك هو أقسى عقاب تناله .. ولن تهنأ بهذا المال أبدًا .

اندفع (صلاح) فى طريقه إلى باب الغرفة ، وهو يحمل رزم الأوراق المالية التى وضعها فى حقيبة جلدية صغيرة معه .

ولكن قبل أن يصل إلى الباب وقف مترددًا .. وهو يستعيد ما قالته له (نجلاء) ، وما لبث أن استدار عائدًا .. ليقف أمامها مطرق الرأس وهو يقول بخجل :

- معك حق .

ثم أعاد النقود مرة أخرى إلى خزينة أبيه وأغلقها .

وبدا مظلم الوجه وهو يقول مرتبكًا :

- أنا آسف يا (نجلاء) .. آسف على كل شىء .. آسف لأنك رأيتنى على هذا النحو المخجل .. وآسف لأننى مددت يدى الى مال أبى لأسرقه .. وآسف على ما قلته لك الآن .

ويبدو أن هناك أشياء كثيرة فى حياتى تستحق الأسف من أجلها .

لم أكن أحب أن أقف أمامك موقفًا كهذا .. فأنا أحترمك وأقدرك ، وكنت دائمًا أصبو إلى أن أكون موضع تقديرك واحترامك .

(نجلاء) :

- ما دمت قد أعدت النقود إلى مكانها .. فالأمر يُعدّ منتهيًا .

(صلاح) :

إننى لم أفعل هذا إلا لاحتياجى الحقيقى إلى النقود .. فقد غادرت المنزل وليس معى سوى بضعة جنيهات قليلة .

لقد كان أبى شديد القسوة هذه المرة معى يا (نجلاء) .. حتى أننى فكرت فى الهجرة إلى (كندا) أو (أستراليا) ومغادرة (مصر) بأسرها .. لكنى وجدت هذا الأمر يحتاج إلى أموال كثيرة لا تتوافر لى .

قالت له (نجلاء)، وقد جزعت لفكرة تركه (مصر) نهائيًا :

- الهجرة ؟!

(صلاح) :

- نعم .. إنها السبيل الوحيد لكى أبدأ بداية جديدة دون حاجة لمساعدة أبى .. لقد عرضت عليه هذا الأمر من

قبل ، ولكنه رفضه بإصرار ، وها هو ذا يدفعنى إلى السعى وراء تحقيق هذه الفكرة ، بعد أن طردنى من منزله .

(نجلاء) :

- لا تلمه ، ولكن لم نفسك .. لماذا (كندا) أو (أستراليا) ؟ ألم يكن من الأفضل أن تعين أباك هنا فى إدارة أعماله ورعاية أراضيه ؟ وتشارك أخاك فى مساندته له ، ما دمت تسعى إلى العمل فى بلاد بعيدة كهذه ؟

(صلاح) :

- العمل هنا لن يحقق طموحاتى .

(نجلاء) :

- (صلاح) .. هل تكذب علىَّ أم على نفسك ؟ أنت ليس لك أى طموحات أصلًا .

هل تبحث عن المال ؟ حسن ، يمكنك أن تحصل عليه هنا ، لو أخلصت النية حقًّا ، فمال أبيك سيكون فى النهاية مالك ومال أخيك ، وتستطيع أن تنميه وتستثمره على أفضل نحو بجهدك وإخلاصك .. بدلًا من أن تفكر فى سرقة هذا المال ، لكى تسافر به إلى بلاد بعيدة كهذه .

ألم تفكر فى أمك المسكينة التى تحبك حبًا جمًا ، والتى أصابها الحزن والمرض منذ أن علمت بمغادرتك البيت ؟

(صلاح) :

- أرجوك يا (نجلاء) ابقى بجوارها هذه الأيام ، وحاولى أن تخففى عنها .

(نجلاء) :

- هل يعنى هذا أنك ستعود لمغادرة المنزل ؟

(صلاح) :

- نعم .. ولست بحاجة لكى أطلب منك ألا تخبرى أحدًا بما رأيته هذه الليلة .

(نجلاء) :

- ألا يكون من الأفضل ، أن تحاول أن تطلب الصفح من أبيك .. وتعمل على أن تثبت له أنك قد صرت شخصًا آخر .

(صلاح) :

- الأمر لا يتعلق بطلب الصفح .. بل لأننى أشعر بالفعل بعدم الرضاء عن نفسى ، وعن حياتى الماضية .. وقد حاولت أن أفهم أبى بأن لدى فعلًا هذه الرغبة الحقيقية فى التغير .. ليس من أجله أو من أجل نفسى فقط .. بل من أجل الإنسانة التى أحببتها أيضًا وبصدق هذه المرة .. ولكنه لم يمنحنى الفرصة .

وحسنًا فعل ، لأننى بحاجة إلى إثبات ذلك ، بعيدًا عن نفوذه ومساعدته .

وبرغم أن ما قاله عن حبه لهذه الفتاة قد أصاب جرحًا فى نفسها ، إلا أنها تمالكت نفسها ، وأخفت مشاعرها هنا وهى تقول له :

- إننى سعيدة لأننى أسمع منك هذا الكلام .. وليتك تتمسك بتحقيقه .

(صلاح) :

- تأكدى أننى سأعمل على أن أجعل من نفسى شخصًا آخر .

وأردف قائلًا بحرارة :

- لا أعرف كيف أشكرك يا (نجلاء) .. فتدخلك لمنعى من سرقة هذا المال ، أنقذنى من بداية خاطئة ، لتلك الحياة التى كنت أرجوها لنفسى .

(نجلاء) :

- وماذا تنوى أن تفعل الآن ؟

(صلاح) :

- حتى هذه اللحظة لا أدرى .. ولكنى أعتقد أننى سأكون مضطرًا إلى البحث عن عمل هنا فى (مصر) كبداية .

(نجلاء) :

يبدو أنك تحب هذه الفتاة حبًا كبيرًا بالفعل ، بدليل هذا الحماس الذى أراه فى عينيك .

(صلاح) :

- صدقينى .. حبى لها مختلف عن كل نزواتى السابقة .

تنبه (صلاح) إلى اندفاعه فى التعبير عن مشاعره .. على نحو قد يجرح مشاعر (نجلاء) ، وهى التى كانت فى طريقها لكى تصبح زوجته .. فأردف قائلًا :

- وصدقينى أيضًا .. لم تكن علاقتنا .. أعنى أنا وأنت .. مجرد نزوة أو مشاعر هوائية من جانبى ، سواء فى بدايتها أو نهايتها .. ولكننى وجدت نفسى لا أستحقك يا (نجلاء) .. كما وجدت أننى أحمل لك من الاحترام والتقدير ، أكثر مما أحمله من الحب بمعناه العاطفى .. هذا هو ما تكشف لى مع مرور الوقت .. ولم أرد أن أخدعك ، أو أغرر بعواطفك ، أو أستمر فى زيجة لا تقوم على حب حقيقى متبادل من الطرفين .. فلا أعتقد أن النجاح والتقدير يكفى وحده لإنجاح مثل هذه الزيجة .

هل تفهمين ذلك يا (نجلاء) ؟

همت بأن تقول له :

- وما ذنبى أنا .. وقد أحببتك بكل صدق وإخلاص .. وكنت فى حاجة إلى حبك أكثر من حاجتى لاحترامك وتقديرك ؟

ولكنها تراجعت عن التعبير عن مشاعرها .. ورسمت ابتسامة باهتة على وجهها ، قائلة :

ـ نعم أفهم يا (صلاح) .. وكما قلت لك أنا فى النهاية ابنة خالتك .

تناول (صلاح) يدها ليربت عليها بحنان قائلًا :

ـ نعم .. ابنة خالتى وأختى وصديقتى .. وسأحمل لك دائمًا الكثير من التقدير ، خاصة بعد ما فعلته معى الآن .. وأرجو أن تنسى أنك رأيتنى هنا فى صورة اللص ..

(نجلاء) :

ـ لم أر هنا لصًا ، بل شخصًا ضاقت به السبل فكاد يقدم على أمر لم يطاوعه عليه ضميره .

ضغط (صلاح) يدها ضغطة خفق لها قلبها قائلًا :

ـ يا لك من فتاة كريمة الأخلاق ونبيلة الإحساس !! وداعًا يا (نجلاء) .. ولا تنسى ما أوصيتك به نحو أمى .

قالت بلهفة :

ـ (صلاح) .. لا تنصرف هكذا .. وقل لى ماذا ستفعل ؟

(صلاح) :

سأحاول البحث عن وسيلة للاتصال بك ، وإطلاعك على أخبارى .

(نجلاء) :

ـ ولكن ليس معك نقود .

(صلاح) :

ـ سأعرف كيف أدبرها .. وداعًا يا (نجلاء) .

استوقفته قائلة :

ـ (صلاح) لا تتماد فى هذا الأمر ، ولا تغب عن هذا البيت طويلًا .. إن هذا البيت فى النهاية هو بيتك كما هو بيت أبيك .. وبضعة أشهر قليلة كفيلة بإصلاح الأمر بينك وبينه فى النهاية ، بعد أن تكون واثقًا من أنك ستستطيع أن تكسب ثقته ، وأن تقلع عن حياتك السابقة .

هز (صلاح) رأسه قائلًا :

ـ سأعمل بنصيحتك .. وسأبذل قصارى جهدى لكى أكون فى الصورة التى تتمنينها لى .

راقبته (نجلاء) وهو ينصرف .. ثم تنهدت وعادت إلى غرفتها .

وألقت بجسدها على الفراش وهى تعاود التفكير فى (صلاح) ..

لقد أدركت بعد أن احتواها الفراش ، أن (صلاح) صادق فى وعده لها ، كما أنه صادق فى حبه لهذه الفتاة .. فتلك النظرة التى رأتها فى عينيه ، كانت مختلفة عما رأته من قبل .

(صلاح) لم يعد لها .. وعليها أن تئد آمالها وأحلامها فى استعادته مرة أخرى ، عليها أن تنسى حبها له كفتاة تمنته زوجًا لها .. وأن تحتفظ له فقط بحبها كابنة خالته ، وكأخت له كما قال لها .

ولكن هل من السهل على المرء أن يبدل مشاعره ، ويتحكم فيها على هذا النحو ؟

هل من السهل على المرء أن يطالب قلبه ، بالتحول عن حب يحمله لأحد الأشخاص فيستجيب له ؟

ارتعدت أوصالها ، وأجهشت بالبكاء .

فقد كانت تعرف جيدًا أن ما تطالب به نفسها شاقًا وقاسيًا .

بل هو الجحيم بعينه .

★ ★ ★

٧ ـ هل تحبنى ؟ ..

توجهت (نجلاء) فى الصباح إلى الحديقة المحيطة بالمنزل ، حيث وجدت زوج خالتها جالسًا يتناول إفطاره ، فبادرته قائلة :

ـ صباح الخير يا عمى .

(رشدى) :

ـ صباح الخير يا (نجلاء) .. هيا لتشاركينى طعام الإفطار .

سألته قائلة :

ـ أين خالتى ؟

(رشدى) :

ـ خالتك لم تنم ليلة أمس إلا ساعات قليلة .. لذا لم أشأ أن أوقظها ، وتركتها نائمة فى الفراش .. تعالى لتتناولى الإفطار .

جلست أمامه قائلة :

ـ لا أشعر برغبة فى تناول أى شىء الآن .

قال مستنكرًا :

- كيف تقولين هذا ؟ إنك لم تأكلى جيدًا على العشاء .. ولا بد من أن تتناولى إفطارًا جيدًا .

ونظر خلفها قائلًا :

- آه .. ها هو ذا قد حضر ذلك الشخص ، الذى سيفتح شهيتك لتناول الإفطار ، بدلًا من شخص عجوز مثلى .

التفتت (نجلاء) وراءها فرأت (عمر) قادمًا ، وزوج خالتها يستطرد :

- لقد عاد (عمر) من السفر .

بدا على الشاب شىء من الارتباك لدى رؤيته لابنة خالته ، فوقف على بعد خطوات منهما مترددًا .

وقال له والده وقد لاحظ ارتباكه :

- ما الذى دهاك ؟ ألا تأتى للترحيب بابنة خالتك ؟ لماذا تقف مكانك هكذا ؟

اقترب (عمر) وقد بدت مشاعر اللهفة والاشتياق على وجهه ، بعد أن تخلص من الارتباك الذى أصابه ، لدى رؤيته المفاجئة لـ (نجلاء) ، وقال :

- أهلًا يا (نجلاء) .. يالها من مفاجأة سعيدة .

ابتسمت له (نجلاء) قائلة :

- أهلًا بك يا (عمر) وحمدًا لله على سلامتك .

(عمر) :

- متى جئت ؟

(نجلاء) :

- أمس .

وقال (رشدى) ضاحكًا :

- رحب بابنة خالتك كما تشاء فيما بعد ، وقل لى هل أنهيت المهمة التى سافرت من أجلها ؟

ابتسم (عمر) قائلًا :

- نعم وبالشروط التى اتفقنا عليها .

أشرق وجه (رشدى) قائلًا :

- عظيم .. إنك تستحق أن يعتمد عليك .

سأله (عمر) :

- أين أمى ؟ وكيف هى حالتها اليوم ؟

(رشدى) :

- أمك بخير .. لقد شعرت ببعض الأرق بالأمس .. لذا فضلت أن أتركها نائمة لتحظى بقدر مناسب من ساعات النوم .

قال (عمر) وهو يبدو مترددًا :

- ألم يعد (صلاح) إلى المنزل ؟

تبدلت ملامح الأب وهو يقول :

- كلًا .. ومن الأفضل عدم التحدث فى هذا الموضوع ..

ثم استطرد وهو ينهض قائلًا :

- إننى ذاهب إلى مصنع البلاط ، وسوف أمر على الأرض فى طريقى .. أما أنت فخذ أجازة من العمل اليوم .

ونظر إلى (نجـلاء) قائلًا :

- واهتم بابنة خالتك .. لا بد أنك لم تتناول إفطارك بعد .

(عمر) :

- فى الحقيقة لم يسعفنى الوقت .

(رشدى) :

- حسن .. إذن ستفطر مع (نجـلاء) .

(نجلاء) :

- صدقنى يا عمى ، إننى لا أشعر برغبة فى تناول أى طعام .

(رشدى) :

- سأترك ابن خالتك يتصرف معك .. فقد تأخرت على المصنع .

وتركهما وانصرف .

نظر إليها (عمر) قائلًا :

- ألا تريدين أن تتناولى إفطارك معى ؟

(نجلاء) :

- كلًا .. ولكن حقيقة لا أشعر بأى ميل لتناول الإفطار .. سأنتظر خالتى حتى تصحو من نومها ثم أفطر معها .

(عمر) :

- إذن فلن أفطر أنا أيضًا .. برغم أننى أشعر بجوع شديد ، وسأتركك تتحملين ذنبى .

(نجلاء) :

- تناول أنت إفطارك ولا تربط نفسك بى .

(عمر) :

- كلًا إننى مصمم .. إما أن تفطرى معى ، أو أعزف عن تناول الإفطار .

واضطرت (نجـلاء) لأن تنصاع إليه قائلة :

- حسن .. سأفطر معك مادمت مصرًا على ذلك .

وجلست لتتناول الإفطار معه .. وفى الحقيقة فقد كان منشغلًا عن تناول الطعام الموضوع أمامه ، بمراقبة وجهها الملائكى المشرق . فقد قلّت مرات رأيته لها منذ انقضاء مشروع زواجها من أخيه (صلاح) . إذ أصبح الوضع محرجًا بالنسبة للطرفين ، مما باعد المسافة بينهما . وهو الذى لم يكن يرجو شيئًا من حبه الصامت لها ، سوى التمتع برؤية وجهها المشرق ، إنه لم يرها منذ شهر مضى ، وكان يغالب رغبته فى الذهاب إلى منزلها ، واختلاق أية حجة لكى يراها .

وها هى الآن معه .. جالسة أمامه .. وعلى نحو يتيح له تأمل هذا الوجه الجميل الذى أحبه .

ولاحظت (نجلاء) أن (عمر) جالس أمامها يتأملها .. فنظرت إليه بدهشة قائلة :

ـ كنت أظن أنك جائع كما قلت .

ارتبك (عمر) قائلا :

ـ آه .. بالفعل .. أنا جائع جدًا .

(نجلاء) :

ـ لا أرى هذا .. فأنت تكتفى بالتحديق فىَّ دون أن تمد يدك إلى الأطباق الموضوعة أمامك .

قال (عمر) بصوت شارد وكأنه يحدث نفسه :

ـ فى الحقيقة عندما يجلس المرء أمام فتاة مثلك .. فإنه يكتفى بذلك عن أى شىء آخر .. حتى الطعام .

نظرت إليه (نجلاء) باستغراب ، وهى تطلق ضحكة قصيرة .. أعقبتها قائلة :

ـ (عمر) .. ماذا قلت ؟ هذه أول مرة تقول لى شيئًا كذلك .. إنك تبدو كما لو كنت تغازلنى .

انتبه (عمر) إلى نفسه .. فقال لها كمن يدفع عن نفسه اتهامًا :

ـ هه .. أغازلك !.. كلّا بالطبع لا يمكن أن أكون قد قصدت ذلك .

قالت (نجلاء) ، وكأنها تحاول أن تذكره بحقيقة الصلة التى تربط بينهما :

ـ ماذا بك .. يا ابن خالتى ؟

مط شفتيه قائلًا :

ـ لا شىء يا ابنة خالتى .. لقد حاولت فقط أن أطريك .. ألا يحق لى أن أعبر عن إعجابى بابنة خالتى ؟

هزت رأسها دون أن تعلق بشىء .. ولكنها عادت لتتأمله وهو يتظاهر بانشغاله بتناول الطعام .. لقد بدا لها فى لحظة .. فى صورة مختلفة عما كانت تراه عليه من قبل .. ولم يكن ذلك الشىء الذى لمحته فى عينيه مجرد إعجاب .. بل كان يبدو كما لو كان مفتونًا بها .

وتنبهت (نجلاء) إلى أنها رأت هذه النظرة ماثلة فى عينيه من قبل .. لكنها لم تظن مطلقًا أنها تعنى شيئًا .

وتساءلت .. هل يحبها (عمر) دون أن تدرى ؟

ولكنه لم يصرح لها بشىء كهذا مطلقًا .. ربما كان ارتباطها بأخيه هو الذى حال بينه وبين ذلك .

وسرعان ما هزت رأسها نفيًا .. وكأنها تنفى هذا الخاطر الذى بدا لها مزعجًا ومربكًا ، وهى تقول لنفسها :

ـ كلّا .. كلّا .. لا يمكن أن يكون (عمر) قد أحبنى .. إنه مجرد وهم توهمته .. فالعلاقة بيننا كانت دائمًا علاقة صداقة وأخوة .

ورد إليها التفكير ما قاله لها (صلاح) بالأمس .

لقد قال لها إنه يعتبرها بمثابة أخت وصديقة له .. وقد تظاهرت بأنها تحمل له نفس المشاعر ، وإن كانت تعرف أنها لم تكن صادقة فى ذلك ، وأنها فقط حافظت على كبريائها أمامه ، وحاولت أن تبدو وكأن الحب القديم قد ولى وانتهى .. ويا ليته كان قد انتهى بالفعل .. فهو ما زال كامنًا فى قلبها كما كان منذ سنوات طويلة .. يعذب هذا القلب ويعذبها معه .. وكلاهما يستحق ما يعانيه من عذاب .. فقد أحبت شخصًا لا يستحق هذا الحب ، ولم يقدره حق قدره .

إذن فلماذا لا تكون مشاعر الأخوة والصداقة القائمة بينها وبين (عمر) تنطوى على شىء أكثر من هذا المعنى من جانب (عمر) .. وأن كبرياءه وأخوته لـ (صلاح) ، ومعرفته بأنها ما زالت تحمل لأخيه مشاعر الحب برغم محاولتها إخفاء ذلك ، وهى التى طالما حدثته عن عواطفها تجاه (صلاح) ، حينما كانا يستعدان للزواج ، هو الذى حال بينه وبين التعبير عن هذا الحب ؟

وقالت لنفسها :

ـ مسكين يا (عمر) ، لو كان هذا الشىء الذى توهمته حقيقيًا .. فأنا أعرف جيدًا مشاعر الشخص الذى يحب إنسانًا من جانب واحد .. وهو واثق أنه لن يجد مقابلًا لهذا الحب .

كانت على حق ..

مسكين هو (عمر) .

* * *



٨ ـ وداعًا لأحلامى ..

سألها (عمر) قائلًا :

ـ لابد أنك حزينة لمغادرة (صلاح) المنزل على هذا النحو .

أجابته قائلة :

ـ ألا يحزنك الأمر أنت أيضًا .

(عمر) :

ـ (صلاح) أخى ، وبالطبع فإننى لم أكن أريد منه أن يغادر المنزل ، على هذا النحو المهين ، وبينه وبين أبى خلاف .. ولكنى آمل أن ينتهى هذا الأمر ، وقد تحول (صلاح) إلى شخص آخر .. يعرف قيمة الأسرة ، وقيمة العمل والكفاح ، وأن ينأى بنفسه عن تلك الحياة اللاهية التى يحياها .

ابتسمت وهى تتأمله قائلة :

ـ إننى أرى فيك دائمًا الإنسان العاقل ، صاحب التفكير المتزن ، والشخصية الجادة ـ لو أن (صلاح) كان يحمل بعضًا من سمات شخصيتك .

(عمر) :

ـ لو كان (صلاح) ممن يحافظون على النعم التى يمن الله بها عليهم ، لحافظ عليك حتى اليوم الأخير فى حياته .. وتشبث بك بكل ما يملك من قوة .

ارتبكت قائلة :

ـ أرجوك يا (عمر) .. لا داعى للخوض فى هذه المسألة مرة أخرى .

(عمر) :

ـ أعرف أن هذا الموضوع يحرجك .

ثم نهض قائلًا دون أن يكمل طعامه :

ـ كما أعرف أنك ما زلت تحبينه بالرغم من كل ما حدث .

وسألته قائلة وقد زادها انفعاله المفاجئ حيرة :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

(عمر) :

ـ سأحاول أن أبذل محاولة للبحث عن (صلاح) .. فلا أعتقد أنه من الحكمة أن ندعه هكذا يهيم على وجهه ، دون أن أوفر له على الأقل ، وسيلة لكى يبدأ بها الاعتماد على نفسه ، وإلا كنا ندفعه بذلك إلى الاندفاع نحو أصدقاء السوء ، الذين كان يعرفهم من قبل ، وربما قادوه إلى ارتكاب جريمة هذه المرة .

(نجلاء) :

ـ بالرغم من أنك أصغر من (صلاح) ، إلا أننى أراك دائمًا وكأنك أكبر منه سنًا .

نظر إليها قائلًا :

ـ ليتك كنت ترينني على نحو آخر .

تطلعت إليه قائلة :

ـ ماذا تقصد ؟

لم يجبها على سؤالها ، بل تطلع إلى درجات السلم القليلة المؤدية إلى الحديقة ، قائلًا :

ـ صباح الخير يا ماما .

ثم اندفع ليستقبلها وهى قادمة نحوهما ليحيط كتفها بإحدى ذراعيه فى حنو ظاهر ، وهو يمسك بيده الأخرى يدها ليقبلها .

وقالت له الأم بصوت ضعيف النبرات :

ـ صباح الخير يا (عمر) .. متى وصلت ؟

(عمر) :

ـ منذ قليل .

ألقت الأم بتحية الصباح على (نجلاء) ، ثم تطلعت إلى ابنها بلهفة قائلة :

ـ ألديك أخبار عن (صلاح) ؟

(عمر) :

ـ سأحاول البحث عنه .

(الأم) :

ـ أرجوك يا بنى .. حاول أن تبحث عنه .. أريد أن أطمئن على أخباره على الأقل ، ترى .. ماذا يفعل الآن هذا المسكين ، وهو بلا مأوى وبلا نقود ؟ لقد رفض أبوك حتى أن يقدم له أى شىء من المال ، قبل أن يطرده من المنزل .

(عمر) :

ـ اطمئنى يا أمى .. إننى لن أتوانى عن البحث عنه ومساعدته .

(الأم) :

ـ حفظك الله يا بنى .

(نجلاء) :

ـ لقد كان (عمر) فى طريقه للبحث عنه بالفعل ، قبل حضورك بلحظات .

نظرت الأم إلى إبنها بحنان قائلة :

ـ (عمر) دائمًا طيب وحنون ، وأنا أعرف أنه لن يرضى لأخيه البؤس والشقاء .

وانصرف (عمر) ليبحث عن أخيه ، بينما قالت الأم للفتاة بلهجة حزينة :

- إننى أخشى أن أموت دون أن أرى (صلاح) .
أشفقت (نجلاء) عليها قائلة :
- لا تقولى هذا يا خالتى أطال الله عمرك .. غدًا سيعود لك (صلاح) أفضل بكثير مما كان .
قالت الأم ، وهى تمسح عبرات تساقطت على وجنتيها :
- ترى أين هو الآن ؟ وهل يظله سقف ، أم هو راقد فى العراء ؟ كيف يمكن لأم أن يهنأ لها بال وهى لا تعلم مستقرًا لولدها .
همت (نجلاء) بأن تخبرها بأنها قد رأته بالأمس .. ولكنها تراجعت عن ذلك ، وقد تذكرت وعدها لـ (صلاح) .. كما أنها ربما لو أخبرتها بأنها قد رأته ، فقد يحرك ذلك شجونها .. ويزيد من لوعتها على ابنها .
وفضلت (نجلاء) أن تصمت الآن على الأقل ، حتى ينجلى الأمر .
وسافرت عائدة إلى بلدتها بعد أن قضت عدة أيام فى منزل خالتها .. وبرغم محاولات خالتها وزوج خالتها للبقاء عدة أيام أخرى .. إلا أنها أصرت على السفر .. خاصة بعد أن علمت بأن أباها قد تعرض لوعكة صحية بعد سفرها بيومين .
واصطحبها (عمر) فى سيارته ليوصلها .

وبعد أن غادرا المنزل بعشر دقائق .. وجدوا فتاة تقف فى منتصف الطريق وهى تشير لهما .
وسألته (نجلاء) :
- من هذه ؟
(عمر) :
(عُلا) .. ابنة (البحراوى) .
(نجلاء) :
هل هذه ... ؟
(عمر) :
- نعم .. الفتاة التى تفجرت بسببها كل المشاكل ، التى كانت بين أبى وبين (صلاح) .
وأوقف سيارته بالقرب من الفتاة التى اندفعت نحوهما ، ثم أطلت من نافذة السيارة ، وحاولت أن تقول شيئًا .. ولكنها بدت مرتبكة وخجلة .
فسألها (عمر) :
- ماذا تريدين ؟
نظرت الفتاة إلى (نجلاء) وهى مترددة .. ثم ما لبثت أن قالت :
- هل أستطيع أن أتحدث إلى الآنسة بمفردنا ؟

قال لها (عمر) :
ـ هذا يتوقف على ما إذا كانت تسمح لك بذلك .
قالت (نجلاء) سريعًا :
ـ بالطبع .. سأتحدث إليها .
ثم فتحت باب السيارة ، واقتربت من الفتاة ، لتسيرا عدة خطوات بعيدًا عن (عمر) ، الذى ظل جالسًا أمام عجلة القيادة .
وقالت لها الفتاة هامسة :
ـ إننى أعرفك .. أنت (نجلاء) ابنة خالة (صلاح) .. لقد كنت أتتبع أخبارك منذ أن وصلت إلى هنا .. وعرفت أنك ستعودين إلى بلدتك اليوم من الطريق العمومى ، فقررت أن أنتظرك حتى تأتى لأتحدث إليك .
ابتسمت لها (نجلاء) ابتسامة مطمئنة ، لكى تخفف عنها اضطرابها قائلة :
ـ وأنا أعرفك .. أنت (عُلا) ، ما الذى تريدين أن تحدثينى فيه ؟
(عُلا) :
ـ إننى أسأل عن (صلاح) .. ألا تعرفين أين ذهب ؟
أحست (نجلاء) بأن السؤال يجرح كبرياءها ، ويحول مشاعر الغيرة فى نفسها ، على الرغم منها ، فهذه فتاة

أحبت (صلاح) وأحبها ، وتسأل عنه خطيبته السابقة ، التى تخلى عنها دون أن تستحى من السؤال .
وتساءلت .. تُرى هل أخبرها (صلاح) عنها ؟ لابد أنه فعل .. ترى ما الذى قال لها ؟ هل قال لها إنه هجرها لأنها لم تكن فتاة أحلامه التى يبحث عنها ؟ أم قال لها إنه كان يظن أنه يحبها ، ولكن كل شىء قد تبدل عندما رأى تلك الفتاة ؟
وكادت مشاعر الغيرة تعبر عن نفسها فى وجه (نجلاء) ، وفى مظاهر الانفعال التى أوشكت أن تفلت منها ولكن ما إن رأت ملامح الحزن المرتسمة على وجه (عُلا) ، ولهفتها الحقيقية على سماع أخبار (صلاح) ، حتى هدأت انفعالاتها .. وأحست بالإشفاق على الفتاة وهى تقول لها :
ـ فى الحقيقة أنا لا أعرف .. أين هو الآن ؟
قالت (عُلا) وقد ازداد اضطرابها :
ـ هل حقيقة أن والده قد طرده من المنزل ؟
(نجلاء) :
ـ ألا ترين أن هذه أمور شخصية ، لا يحق لأحد أن يتدخل فيها ؟

(عُلا) :

ـ آسفة .. ولكن .. ولكنك لا تعرفين مقدار الصلة التى تربط بينى وبين (صلاح) .. لقد فضلت التحدث إليك ، لأنك فتاة مثلى ، وأقدر على فهم مشاعرى .. بالإضافة إلى ما سمعته عن نبل أخلاقك .. ولم أكن لأستطيع أن أخوض فى هذا الأمر أمام أخيه .

قالت (نجلاء) وقد أحست بأن حديث الفتاة يثقل على أحاسيسها الجريحة :

ـ أعلم مقدار الصلة التى بينك وبين (صلاح) .. كما أعلم أن أباك غير راض عن هذه الصلة .

(عُلا) :

ـ إن الأمر لم يكن بيدى ولا بيده ، فقد تحاببنا أنا و (صلاح) على نحو لم نقو معه على كبح جماح مشاعرنا .. إننى آسف لأننى كنت سببًا فيما حدث بين (صلاح) ووالده ، وأننى تسببت فى طرده من المنزل .. وهذا ما يزيد من عذابى .

حاولت (نجلاء) أن تخفف حالة الحزن التى سيطرت على الفتاة قائلة :

ـ إنك لم تكونى السبب المباشر فى مغادرة (صلاح)

للمنزل .. ولكن الأمر يعود إلى خلافات عديدة تفجرت آثارها مرة واحدة بين زوج خالتى و (صلاح) .

(عُلا) :

ـ لا أصدق أنه قد غادر البلدة .. لقد وعدنى بأنه لن يمضى إلى أية جهة إلا بعد أن يخبرنى .

(نجلاء) :

ـ ربما لا يكون قد غادر البلدة بالفعل .. وربما حاول الاتصال بك قريبًا .

(عُلا) :

ـ أرجو أن يتحقق ما تقولينه .. فأنا .. أنا ...

وسألتها (نجلاء) بقلق :

ـ أنت ماذا ؟

(عُلا) :

ـ لا أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أخبرك .. ولكننى أشعر بأننى بحاجة لأن أخبر أحدًا بهذا الأمر .

(نجلاء) :

ـ يمكنك أن تعتبرينى صديقة ، وتخبرينى بما تريدين لو أردت .

(عُلا) :

ـ ان لدى إحساسًا بالثقة بك .. لذا سأكشف لك عن السر

الذى أحتفظ به لنفسى ، ربما أوضح لك هذا مدى حاجتى لمعرفة مكان (صلاح) .. وجعلك تساعدينى فى البحث عنه ، أو على الأقل تخبرينى بمكانه ، لو كنت تعرفينه أو أتيح لك معرفته .

إننى و (صلاح) قد تزوجنا .

جاء الخبر مباغتًا لـ (نجلاء) .. التى ظلت للحظات تنظر إليها وهى مشدوهة ، وكأنها لا تصدق ما سمعته أذناها .

ثم ما لبثت أن سألتها ، وكأنها تريد أن تتأكد من صدق ما سمعته :

ـ تقولين إنكما قد تزوجتما ؟

(عُلا) :

ـ نعم .

(نجلاء) :

ـ ومتى ، وكيف حدث هذا ؟

(عُلا) :

ـ قبل رحيله بثلاثة أيام .. لقد تزوجنا فى السر ، وكنا ننتظر الوقت المناسب للإعلان عن هذا الزواج .

قالت (نجلاء) مستنكرة :

ـ الوقت المناسب .. لماذا يكون زواجكما سريًا ؟ ولماذا لم يخبر كل منكما والده بأمر ذلك الزواج ؟

(عُلا) :

ـ آنسة (نجلاء) .. ألا ترين الفارق الاجتماعى الكبير الذى يفصل بينى وبين (صلاح) ؟

لم يكن يستطيع أن يصارح والده بأمر هذه الزيجة .. ولو فعل لكان قد حرمه من كل شىء بما فى ذلك حقه فى ميراثه .

فأنا ابنة مزارع أجير كان يعمل لدى (رشدى) بك .. أحد أعيان البلدة .. بل أغناهم وأكثرهم نفوذًا .. ولم أكن لأستطيع بالطبع أن أخبر أبى بأننى تزوجت أو سأتزوج زواجًا سريًا .. فهو لم يكن ليقبل أو يغفر لى ذلك .. خاصة وأن أبى عزيز النفس برغم فقره .

لذا فضلنا أن نخفى أمر زواجنا ، حتى تتحسن الظروف ، ويأتى الوقت المناسب للإعلان عنه .. وكان دافعنا إلى التعجل فى هذا الزواج ، هو خوفنا من ضياع حبنا ، وحرصًا منى على ألا أفقد (صلاح) .

(نجلاء) :

ـ لا أعرف ماذا أقول لك ؟ فالأمر مربك بالنسبة لى حقيقة .. إذ فاجأتنى بما قلته الآن .

وأنا وإن كنت لا أوافقك على ذلك الزواج السرى .. إلا أننى من جانبى لن أتوانى عن إخبارك بمكان (صلاح) ، لو أتيح لى معرفته .. فأنت الآن مسئولة منه .

(عُلا) :

- أشكرك من كل قلبى يا آنسة (نجلاء) ، وتأكدى أننى لن أنسى لك هذا .

واستدارت (عُلا) عائدة ، فى حين ظلت (نجلاء) واقفة فى مكانها لعدة لحظات ، كما لو كانت تمثالًا جامدًا وبلا مشاعر .

وأثار هذا قلق (عمر) فغادر سيارته واقترب منها قائلًا :

- (نجلاء) .. ماذا بك ؟

انتبهت (نجلاء) من تلك الحالة التى تملكتها على صوت (عمر) .. الذى دنا منها مستطردًا :

- هل قالت لك تلك الفتاة شيئًا أزعجك ؟

هزت (نجلاء) رأسها قائلة :

- كلّا .. فى الحقيقة لقد كانت تسألنى عن (صلاح) ؟

قال بدهشة :

- ولماذا اختارتك أنت بالذات لتسألك عنه ؟.. برغم أنه لا توجد معرفة سابقة بينكما .

قالت وهى تحاول أن ترسم ابتسامة مزيفة على وجهها :

- يا أخى نحن فتيات وندرك مشاعر بعضنا .. كما أننى قريبتكم الوحيدة هنا .

(عمر) :

- حسن .. ألا نعود إلى السيارة .

(نجلاء) :

- نعم .. هيا بنا .

وسارت بجانبه عائدة إلى السيارة ، وقد حاولت أن تبدو متماسكة .. ولكن الواقع أن شيئًا بداخلها كان يترنح .

ونظر إليها (عمر) بقلق واهتمام حقيقى قائلًا :

- (نجلاء) .. إننى أعرف أنه أمر قاسٍ عليك ، أن تلتقى وتتحدثى إلى فتاة تعلمين أنها قد أصبحت تشاركك الإنسان الذى تحبينه .. ولكن لعل هذا اللقاء لا يترك فى نفسك أثرًا سيئًا .

نظرت إليه (نجلاء) قائلة :

- تقصد الرجل الذى كنت أحبه .. لماذا لا تصدق أن ما بينى وبين (صلاح) قد انتهى ؟

وأن ما تبقى له من حب فى قلبى هو روابط الصلة التى تربط بيننا كأبناء خالة ؟

قال (عمر) وهو يتأملها بعينين مرتابتين :

- سأحاول أن أصدقك .

استقرت بجواره داخل السيارة التى واصل طريقه بها ، وقد ألقت برأسها على المسند الخلفى وهى ساهمة .

وقالت لنفسها :

ـ نعم علىَّ أن أنزع هذا الحب من قلبى .. فما قالته تلك الفتاة ، قد قضى على ما تبقى لى من أمل فى هذا الحب ، وفى أن أسترد (صلاح) ذات يوم .. لقد تزوجها وهى وحدها التى يحق لها أن تحلم وترسم الآمال العريضة معه .. هى وحدها .

وانطلقت الكلمة كخنجر حاد فى أعماقها ، انغرس فى قلبها المسكين ..

نعم .. هى وحدها .

* * *



ـ لقاء وحنين ..

تطلَّع صاحب مصنع البلاط إلى (صلاح) ، قائلًا :

ـ ماذا تريد ؟

قال له (صلاح) بصوت هامس :

ـ لقد سمعت أنكم تريدون عمالًا للعمل بالمصنع .

وتطلع إليه صاحب المصنع ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الدهشة .. فلم يكن ذلك الشخص الواقف أمامه فى مظهره وهيئته ، موحيًا بأنه يصلح لهذه المهنة على الإطلاق ، وما لبث أن قال له :

ـ هل قرأت الإعلان جيدًا ؟

أجابه (صلاح) :

ـ نعم .

ثم أخرج من جيبه الصحيفة ، التى تحتوى على إعلان طلب العمال ، مشيرًا له على الإعلان وهو يقول :

ـ ها هو ذا الإعلان .

قال له صاحب العمل :

ـ نعم .. نعم .. ولكن هل ترى نفسك مؤهلًا لمثل هذا

العمل ؟ اعذرنى يا بنى ، ولكن مظهرك .. أعنى أنك لا تبدو بالنسبة لى منتميًا إلى طبقة العمال .

همّ (صلاح) أن يخبره بأن لديه فكرة لا بأس بها عن العمل فى إنتاج البلاط ، لأن والده يمتلك مصنعًا مماثلًا .. ولكنه تراجع عن قوله .. إذ لابد أن ذلك كان سيستتبع سؤالًا آخر ، عن كيفية أن يعمل ابن صاحب مصنع بلاط ، أجيرًا فى مصنع آخر ، وربما أثار هذا ارتياب الرجل .

فقال له :

- لا تغتر بالمظهر .. المهم أننى أجيد هذا العمل ، ولك أن تختبرنى .

بقى صاحب المصنع مترددًا لبرهة من الوقت .. ثم ما لبث أن قال له :

- حسن .. ولكن عليك أولًا أن تبدل هذه الثياب .. ثم تأتى لترينى مهارتك .

نزع (صلاح) سترته .. ثم شمّر كمى قميصه قائلًا :

- إننى مستعد لذلك .

كان على (صلاح) أن يتشبث بهذا العمل ، ويثبت أحقيته فيه بأى وسيلة ، فقد فشل طوال شهرين مرا عليه ما بين (القاهرة) و (الاسكندرية) ، فى أن يحصل على عمل .. وحتى حينما أمكنه الحصول على عمل بسيط فى

أحد الفنادق ، لم يستطع الاستمرار فيه ، لأكثر من أسبوع واحد .. ووقف مؤهله المتوسط حائلًا دون أن يحصل على وظيفة أخرى مناسبة .

وها هى ذى نقوده قد نفدت .. ولولا أن أحد أصدقائه قد منحه هذه الشقة الصغيرة المكونة من حجرتين ، والتى يقضى فيها هو وأسرته أجازتهم فى الصيف بصفة مؤقتة ، حتى يستطيع تدبير أمره .. لما أمكنه أن يجد مكانًا يأويه .

لقد كاد يضعف عدة مرات ، ويعترف بفشله .. وفكر أكثر من مرة أن يعود إلى أبيه ليعترف أمامه بهذا الفشل .. ولكن نفسه لم تطاوعه .

لم يكن الأمر بالنسبة له مسألة كرامة فقط .. ولا تكبرًا على طلب العفو من أبيه والاعتراف أمامه بأخطائه السابقة .. وإنما كان (صلاح) جادًا هذه المرة فى إصلاح نفسه ، وفى أن يخلق من نفسه شخصًا آخر .. شخصًا يمكن أن يتحمل المسئولية وأن يواجه صعوبات الحياة .

إنه بحاجة لإثبات ذلك لنفسه أولًا ..

ولزوجته ثانيًا .

ثم إنه لا يعرف ما الذى سيفعله معه والده ، لو عرف أنه قد تزوج (عُلا) ؟.. وهو برغم تدينه واشتهاره بين الناس بأنه رجل خير ، إلا أنه ما زال متمسكًا بتلك الفوارق

الاجتماعية ، التى تفصل بين الناس .. ويرى أن هناك أصولا ومبادئ تحكم هذا الأمر ولا يجوز تخطيها .

ربما عاد ليطرده من منزله مرة أخرى ، ومعه زوجته هذه المرة .. فماذا سيفعل وقتها .. هل سيشردها معه فى الطرقات ؟

وتذكر زوجته فى هذه اللحظة .. (علا) .. الفتاة الوحيدة التى أحبها بكل صدق وإخلاص .. والتى استطاعت بالفعل أن تبدل كثيرًا من أفكاره وأسلوب حياته .. ترى ماذا تفعل الآن ؟ وماذا تظن به ؟ هل يحاول الاتصال بها ليطمئن عليها ، ويطمئنها على أخباره .. أيرسل لها رسالة قصيرة ، ليخبرها من خلالها عن مكانه وأخباره ؟.. أم يسعى للسفر إلى البلدة خلسة محاولا الاتصال بها ؟ ولكن ماذا كان بإمكانه أن يقول لها ؟!

أيقول لها إنه يقيم فى منزل أحد أصدقائه .. وأنه قد أنفق كل ما معه من نقود دون أن يحصل على عمل بعد .. ودون أن يستطيع تدبير مكان يجمعهما معًا ؟

لقد فكر كثيرًا فى الاتصال بها ومقابلتها ، بعد أن أضناه الحنين إليها .. ولكنه كان يتراجع عن ذلك .. لأنه لم يكن يجد ما يقدمه لها كزوجة .. وفضل أن يؤجل هذا الأمر حتى يستطيع على الأقل أن يقف على قدميه .

وقال (صلاح) لنفسه :

ـ هل كان يتعين علىّ أن أتزوجها ، بالرغم من الظروف التى كانت تحول بيننا ؟ وما ذنبها لكى أضعها معى فى هذا الموقف الشائك ؟

لقد جبنت عن إخبار أبى بأمر زواجى منها .. كما أننى اشترطت عليها حين زواجنا أن يبقى هذا الأمر سرًا لا تبوح به لأحد حتى أدبر الأمر .

وتركتها هكذا .. معلقة .. لا هى زوجة مثل بقية الزوجات الأخريات .. ولا هى تملك فرصة الزواج من آخر ، يستطيع أن يوفر لها حياة كريمة مستقرة .

حقًا .. لقد كان خطئا كبيرًا ذلك الذى ارتكبته بزواجى منها ، برغم حبى الشديد لها ، ولكنى اضطررت لذلك خوفًا من أن تضيع منى .. وهكذا كنت معها أنانيًا كما كنت مع الآخرين .. مع أبى .. وأمى .. و (نجلاء) ابنة خالتى .. و(عمر) أخى .. لقد كنت دائمًا أتصرف بأنانية ، وكنت دائمًا آخذ دون أية رغبة فى العطاء فى مقابل الأخذ ، وأبى لم يكن مخطئًا فيما فعله معى .. فقد كنت أستحق هذا وأكثر .. كنت بحاجة للطمة قوية تفيقنى من تلك الحياة اللاهية العابثة التى كنت أحياها .. وتنبه هذا الإنسان الأنانى المحب لذاته ، لما ارتكبه من أخطاء فى حق نفسه وفى حق الآخرين .

وأفاق (صلاح) من أفكاره وشروده ، على صوت صاحب المصنع ، وهو يشير إلى إحدى الماكينات ، وعلى خلطة الأسمنت والرمل ، وبقية المواد الأخرى التى تدخل فى صناعة البلاط ، قائلًا :

ـ هيًا .. دعنا نر مهارتك .

استعان (صلاح) بخبرته المحدودة السابقة ليتذكر طريقة استخدام هذا النوع من الماكينات فى صنع البلاط والرخام .

وما لبث أن بدأ يعمل ، وقد استعاد خبرته السابقة فى عمل البلاط .

وارتسمت على وجه صاحب المصنع ملامح الرضا .. ثم ما لبث أن قال له :

ـ فى الواقع إنك تبدو متمكنًا من هذا العمل .. أين ومتى تعلمت صناعة البلاط ؟

قال (صلاح) :

ـ المهم هل ستعيننى فى العمل لديك ؟

صاحب المصنع :

ـ نعم .

تنهد (صلاح) بارتياح .. فقد كان فى أمس الحاجة لهذا العمل .

وقال له صاحب المصنع :

ـ ستأخذ فى اليوم ستة جنيهات ، عدا حوافز الإنتاج وساعات العمل الإضافية ، لو أردت أن تشارك فى العمل الإضافى .

(صلاح) :

ـ نعم .. إننى مستعد لذلك .

صاحب المصنع :

ـ إذن يمكنك أن تبدأ العمل من الغد .. وسوف أحرر لك الآن عقدًا .

قال (صلاح) وهو يصافحه فى حرارة :

ـ أشكرك .. أشكرك جدًا .

استوقفه صاحب المصنع قبل أن ينصرف ، قائلًا :

ـ انتظر .

ثم أشار إلى ثيابه ، قائلًا :

ـ عليك أن تبدل هذه الثياب .. ويمكنك أن تحصل على (أوفرول) من المصنع فور توليك العمل .

(صلاح) :

ـ ستجدنى فى المصنع من السادسة صباحًا .

★ ★ ★

عاد (صلاح) ذات يوم من المصنع مرهقًا وهو يترنح من شدة التعب .. فقد اضطر لقضاء عدد إضافى من ساعات العمل فى المصنع فى هذا اليوم .

وبينما هو يقترب من باب المنزل الذى يقطن فيه ، إذا به يلمح خيالًا لشخص تكاد ملامحه أن تكون معروفة له .

وما إن اقترب منه حتى تسمر مكانه ، قائلًا :

ـ (عمر) .

ابتسم له (عمر) قائلًا :

ـ كيف حال أخى العزيز .

كان قد مرّ حتى هذه اللحظة ثلاثة أشهر ، منذ أن افترقا عن بعضهما .. وبرغم بعض الخلافات التى كانت موجودة بينهما .. إلا أن (صلاح) كان فى شدة الاشتياق للقاء أخيه .. لذا فقد تهلّل وجهه بالفرحة ، بعد أن تجاوز وقع المفاجأة عليه ، وفتح ذراعيه بصورة تلقائية ليحتضن أخاه .

وفى الشقة التى جمعتهما معًا قال له (عمر) :

ـ لقد أرهقنى البحث عنك كثيرًا .. سألت العديد من أصدقائك فى (القاهرة) ممن أعرفهم ، ولكن أحدًا منهم لم يكن يعرف عنك شيئًا .. إلى أن جعلنى أحدهم ألتقى بصديقك (فؤاد) ، ولولا إحساسه بشدة قلقى ، وبالتعب

الذى بذلته فى البحث عنك ، ما كان قد أخبرنى بأنك تقيم فى شقته هنا فى (الإسكندرية) .

نظر إليه (صلاح) قائلًا :

ـ لم أكن أريد أن يعرف أحد مكانى .. فى الوقت الحاضر على الأقل .. ولكنى سعيد لأننى رأيتك .. دقائق وسأعد لك طعام العشاء لنتناوله معًا .

(عمر) :

ـ وماذا تنوى أن تطعمنى .

(صلاح) :

ـ فى الحقيقة لا يوجد هنا سوى ثلاث بيضات ، وبعض الجبن .. ولكن سوف ...

قاطعه (عمر) قائلًا :

ـ كلا .. هذا الطعام لن يكفينا ، فأنا جوعان . أبدل ثيابك وتعال معى ، سأدعوك لتناول العشاء فى أفضل مطاعم (الإسكندرية) .

(صلاح) :

ـ ولكنى متعب .

(عمر) :

ـ سيارتى بجوار المنزل والمطعم قريب من هنا ، كما أن الطعام الشهى سيذهب عنك التعب .. هيًا .. هيًا ولا تضع الوقت .

جلس (صلاح) مع أخيه إلى إحدى الموائد فى المطعم الأنيق المطل على البحر يتناولان طعامهما .

وسأله (عمر) قائلًا :

- هه .. ما رأيك فى هذا المكان ، والطعام الذى يقدمه ؟

وابتسم (صلاح) قائلًا :

- إنه يذكرنى بأيام العزّ .

(عمر) :

- على كل حال ، لا تتصور أن أخاك يتناول طعامه دائمًا ، فى مثل هذه المطاعم الفاخرة .. أنت تعرفنى جيدًا إننى رجل عملى .. يكفينى أحيانًا بضعة سندوتشات من الفول و (الطعمية) أستعين بها على التخلص من الجوع ، وقضاء أعمالى .. أما طعام الحاجة (فاطمة) فهو الشىء الوحيد الذى لا يمكننى مقاومته .

توقف (صلاح) عن استكمال طعامه لدى سماعه لذكر أمه ، قائلًا :

- كيف حالها ؟

(عمر) :

- بخير .. إنها فقط مشتاقة إليك ، ولا تمل السؤال عنك .

(صلاح) :

- وأبى .

(عمر) :

- هو أيضًا بخير .. ولا يقل اشتياقًا ولهفة عن أمى لرؤيتك ومعرفة أخبارك ، وإن كان يحاول أن يتظاهر بعكس ذلك ، ويبدو صلبًا كعادته .. فأنت تعرف أباك .

(صلاح) :

- الحمد لله أنك طمأنتنى عليهما .. ولكن قل لى أولًا .. هل أخبرت أحدهم بمكانى هنا ؟

(عمر) :

- كلا .. لقد جئت من (القاهرة) إلى (الإسكندرية) رأسًا ، بعد أن علمت بمكانك .

(صلاح) :

- حسن .. أرجو ألا تخبرهما بمكانى الآن .

(عمر) :

- ولماذا ؟

(صلاح) :

- لا أريد أن يعرف أحدهما شيئًا عنى الآن .

(عمر) :

- وأمك الملتاعة بفراقك .. وأبوك الذى يضغط على أعصابه لكى يخفى حنينه إليك ، والذى صار متوترًا عصبيًا منذ أن رحلت .. أما آن الأوان لكى تريحهما وتخفف عنهما بعض الشىء ؟

(صلاح) .. لقد آن لهذا الأمر أن ينتهى وتعود إلى منزلك .. فقد كانت غضبة من أبى وانتهت .. لو ذهبت إليه الآن ، وطلبت منه الصفح ، فأنا أعتقد أنه سيكون مستعدًا للصفح عنك .

(صلاح) :

ـ ليس للأمر علاقة بما حدث بينى وبين أبى .. بل إننى كنت بحاجة لما حدث لكى أعيد اكتشاف نفسى ، وبناء شخصيتى .. وأنا بالفعل أعيش مرحلة تغير فى حياتى يا (عمر) .

هل تعلم أننى الآن أعمل وأكد وأعرق وأشعر بلذة العمل ؟ وبقيمة حقيقية للجنيهات القليلة التى أحصل عليها فى نهاية الشهر ، بما يفوق كل ما حصلت عليه من مال من قبل ؟

(عمر) :

ـ لقد سمعت أنك تعمل فى مصنع للبلاط ؟

(صلاح) :

ـ نعم ولقد بدأت أحب هذا العمل .

(عمر) :

ـ ألا تعتقد أنك تطرفت بعض الشىء فى إقدامك على هذا الأمر يا (صلاح) .

(صلاح) :

ـ لماذا ؟ ألم يشركنا أبى مع العمال فى هذه الصناعة ، وجعلنا نضع البلاط بأيدينا ونحن صغار .

(عمر) :

ـ نعم .. ولكن هذا لكى نعرف دقائق هذه الصناعة ، حتى نكون مستعدين لمشاركته فى إدارة المصنع فيما بعد .. ومعرفة كل النواحى الفنية فى هذه الصناعة .

(صلاح) :

ـ لقد أفادنى هذا فى الالتحاق بمصنع البلاط .. حينما كان يشركنى أبى مع العمال فى صناعة البلاط ، كنت آخذ الأمر هزوًا دون أن أعيره اهتمامًا حقيقيًا .. ولكنى الآن أعمل بمنتهى الجدية ، وأريد أن أتعلم كل ما هو جديد ومتطور فى صناعة البلاط والرخام .

أريد أن أبدأ السلم من أوله كما أراد لى أبى .. حتى يمكننى أن أكون رجلًا مسئولًا فيما بعد .. ويمكننى أن أشاركك وأشارك أبى فى توسيع مصنع البلاط الذى يمتلكه الحاج (رشدى) .. وقتها فقط يمكننى أن أعود وأطلب الصفح منه .

وابتسم (عمر) قائلًا :

إننى سعيد لأننى أسمع منك هذا الكلام .. يبدو أنك تغيرت حقًا يا (صلاح) .

وصمت قليلًا قبل أن يستطرد ، قائلًا :

ـ ولكن إلى متى تريد الاستمرار فى هذا الأمر ؟

(صلاح) :
ـ إلى أن أتأكد .
(عمر) :
ـ تتأكد من ماذا ؟
(صلاح) :
ـ من أننى قد استفدت بالكامل من الدرس الذى أراد أبى أن يلقنه لى .
(عمر) :
ـ ولكنك لم تسألنى حتى الآن عن شخص آخر .
(صلاح) :
ـ من هذا الشخص الذى تقصده ؟
(عمر) :
ـ تلك الفتاة التى خلفتها وراءك دون حتى كلمة وداع ، والتى ساءت حالتها منذ أن سافرت .
(عُلا) يا (صلاح) .
وهنا ..
هنا فقط ، خفق قلب (صلاح) بشدة .

★ ★ ★

١٠ ـ الحلم ..

(صلاح) :
ـ ألديك أخبار عن (عُلا) ؟
(عمر) :
ـ الآن فقط تذكرت .. أم أنك نسيتها ؟ واعتبرتها مجرد نزوة كالأخريات ؟
(صلاح) :
ـ لا .. (عُلا) ليست كالأخريات .. وأنا لم أنسها مطلقًا .. ولكن ما يمنعنى من الاتصال بها الآن هو نفس ما يمنعنى من العودة إلى المنزل .
(عمر) :
ـ كلا .. إن الأمر هنا يختلف .. فاختيارك أن تبقى بعيدًا عن العودة إلى المنزل الآن هو أمر متعلق بك وحدك .. أما الفتاة فهى مسئولة منك وبحاجة إلى رعايتك .. لأنها زوجتك .
قال له (صلاح) وقد فوجئ بما قاله أخوه :
ـ هل عرفت ؟

(عمر) :

ـ أعتقد أن هذا الزواج السرى من الفتاة ، كان من أكبر أخطائك .

(صلاح) :

ـ إنها الفتاة الوحيدة التى أحببتها حبًا حقيقيًا ولم يكن هناك خيار ، إما أن نتزوج أو نفترق .

(عمر) :

ـ ولماذا لم تفعل مثل كل الناس ؟ لماذا لم تطلب يدها من أبيها بشكل علنى وبطريقة تحفظ لها كرامتها وسط أهل البلد ؟

(صلاح) :

ـ لم يكن أبوك ليوافق على ذلك .. فأنت تعرفه جيدا .. إنه قد يغفر لى كل ما ارتكبته من خطايا .. إلا أن أتزوج من ابنة شخص كان أجيرًا عنده .. وربما كان قد أقدم على تصرف فيه إساءة لى وللفتاة وأبيها .

(عمر) :

ـ ولكنه سيعلم بالأمر يومًا ما .. ثم إن أباك ليس طاغية إلى هذا الحد الذى تحاول أن تصوره .. ثم هل نسيت أباها ؟ ماذا سيكون تصرفه إذا ما عرف أن ابنته قد تزوجت دون علمه ؟

ما دمت قد تزوجتها .. فكان عليك تحمل تبعة قرارك ومواجهة الجميع بالأمر .

(صلاح) :

ـ المسألة مسألة وقت .. وزواجى منها أفضل وأشرف من اللقاءات المستترة ، التى كانت تتم بيننا دون رباط رسمى .

(عمر) :

ـ دائمًا ما تجد لنفسك المبررات يا (صلاح) .. على كل حال لن أطيل معك فى هذا الأمر .. كل ما أريد منك أن تعرفه هو أن الفتاة بحاجة إليك ، وأنها لا تنقطع عن السؤال عنك ، ومحاولة تتبع أخبارك .. لقد أخبرت (نجلاء) بأمر زواجكما .. وهى تتصل بها من آن لآخر أملًا فى أن تعثر لك على أثر ، أو أن تكون (نجلاء) قد عرفت عنك شيئًا .. وأخيرًا لجأت إلىّ برغم خجلها منى .

(صلاح) :

ـ لا تحاول أن تخبرها بأنك قد عثرت على مكانى .

انفعل (عمر) قائلًا :

ـ كيف تريد منى أن أرى زوجتك ملتاعة عليك ، ويكاد القلق أن يقتلها هكذا ، دون أن أحاول حتى طمأنتها عليك ؟

(صلاح) :

ـ لو أخبرتها ستعمل على الحضور إلىّ .. وأنا الآن لا أمتلك المسكن اللائق ، ولا المال الكافى لإعالتها .

(عمر) :

ـ ولكنها زوجتك فى النهاية ، وأنت المسئول عن كل ما يخصّها .

ولما رأى علامات التردّد على وجهه أردف ، قائلًا :

ـ يبدو أنك لم تتغير بما فيه الكفاية .. وما زال أمامك الكثير .

قال (صلاح) فيما يشبه التوسل :

ـ (عمر) .. أرجوك قدّر ظروفى .

تلفت (عمر) حوله .. ثم قال له :

ـ دعنا نغادر هذا المكان .

اصطحب (عمر) (صلاح) في سيارته التى أوقفها أمام إحدى العمارات .. قائلًا له :

ـ تعال معى .

(صلاح) :

ـ إلى أين ؟

(عمر) :

ـ تعال وستعرف .

واستقل معه المصعد ، حيث توقف أمام إحدى الشقق .. ورآه (صلاح) وهو يفتح باب الشقة ليصحبه معه إلى الداخل .

وسأله (صلاح) قائلًا :

ـ من أعطاك مفتاح هذه الشقة ؟

قال (عمر) بعد أن اصطحبه ليرى حجراتها :

ـ قل لى أولًا .. ما رأيك فيها ؟

(صلاح) :

ـ ما زلت لا أعرف ما علاقتك بهذه الشقة .

(عمر) :

ـ إنها شقتى .

نظر إليه (صلاح) بدهشة ، قائلًا :

ـ شقتك ؟!

(عمر) :

ـ وستكون شقتك منذ الآن طوال إقامتك فى (الإسكندرية) .

(صلاح) :

ـ هل تقصد أنك استأجرت هذه الشقة ؟

(عمر) :

ـ بل اشتريتها بما تجمع لدى من مدخرات .. منذ شهر تقريبًا .

(صلاح) :

ـ ولكن لماذا ؟ أعنى لماذا تشترى شقة فى (الإسكندرية) بالذات ؟

(عمر) :

- مشروع استثمارى .. لقد فكرت أن أستفيد بالمبلغ الذى تجمع لدىَ من العمل مع الوالد ، فى شراء شقة (بالإسكندرية) وتأجيرها مفروشة للطلبة فى الشتاء ، وللمصطافين صيفًا .. بعد أن أغرانى بذلك أحد الأصدقاء ، وعرفت أنها ستحقق عائدًا مجزيًا .. شىء أفضل من ترك النقود راكدة فى البنوك .. ومن حسن حظك أنك جئت للعمل فى (الإسكندرية) لتستفيد من هذه الشقة .

ووضع يده على كتف أخيه مستطردًا :

- الآن تستطيع أن تسلم صديقك مفتاح شقته ، وتنقل أمتعتك إلى هذه الشقة الرحبة .. ثم تفكر فى وسيلة لاستدعاء زوجتك لتقيم معك هنا ، أو إخبارها بمكانك على الأقل .. أعتقد أن هذا سيكون أفضل بكثير .

(صلاح) :

- أشكرك يا (عمر) .. ولكنى لا أستطيع أن أتسبب فى حرمانك من استثمار عائد المبلغ الذى دفعته فى هذه الشقة ، والحيلولة دون قيامك بتأجيرها .. تحقيقًا للغرض الذى اشتريتها من أجله .

(عمر) :

- لا تشغل بالك بهذا الأمر .. الشقة ما زالت بحاجة

لبعض التأثيث لكى تكون صالحة كشقة مفروشة ، ولست بحاجة إلى عائدها الآن .. ثم إنها قريبة من مكان عملك كما أعتقد .. أليس كذلك ؟

(صلاح) :

- لا أعرف كيف أشكرك .

(عمر) :

- يمكنك أن تعتبر هذه الشقة ملكك بالطبع .. فليس هناك فارق بينى وبينك كما تعرف يا (صلاح) .. ولكنى أتمنى أن أراك ، وقد عدت إلى منزلنا فى البلدة قريبًا .

فمكانك .. إن لم يكن فى نفس المنزل الذى تربينا فيه معًا .. ففى نفس البلدة التى أحببناها ، والتى عاش فيها أبونا وأجدادنا .. أنت تعلم أن أبى قد بنى لنا طابقين فى ذات المنزل ، أحدهما لشقتى .. والآخر لشقتك ، لأنه كان يريدنا دائمًا بجواره فى المنزل ، كما أراد أن تكون بجواره فى عمله ، وفى رعايته لأراضيه وماله .. وهذه الشقة ما زالت فى انتظارك أنت وزوجتك .. أما مسألة إقناع أبى بمباركة هذه الزيجة فدعها لى .

كل ما هنالك أننى لا أريد أن أتدخل فى حريتك الشخصية ، وفى قرارك واختيارك للوقت المناسب للعودة .. وبالصورة التى نتمناها لك جميعًا .. ولكننى واثق أنك ستحسن التصرف فى النهاية .

وفى اليوم التالى استقل (عمر) سيارته عائدًا من (الإسكندرية) إلى بلدته وهو سعيد ، وفى حالة معنوية مرتفعة .. لا بسبب لقائه بأخيه فقط واطمئنانه عليه ، ولكن أيضًا لتلك الإجابة التى تلقاها على سؤاله الذى وجهه إليه قبل أن يودعه ، وهو سؤال ظل مترددًا طويلًا قبل أن يطرحه عليه .. وإن كان بحاجة ماسة لسماع إجابته .

لقد سأله قائلًا قبل أن يصل إلى باب الشقة :

ـ (صلاح) .. أريد أن تجيبنى بصراحة .. هل انتهى كل شىء حقيقة بينك وبين (نجلاء) ؟

(صلاح) :

ـ ولماذا تسأل هذا السؤال الآن ؟

(عمر) :

ـ فقط أريد أن أسمع إجابتك .

(صلاح) :

ـ إننى أحمل لـ (نجلاء) من المودة والاحترام ، ما هو أكثر بكثير من العواطف ومشاعر الحب ، على النحو الذى تتصوره .. وستبقى (نجلاء) بمثابة أخت لى كما هى ابنة خالتنا .

ولاحظ (صلاح) ملامح الارتياح التى ارتسمت على وجه (عمر) لدى سماعه لهذه الإجابة ، فتأمله بعين فاحصة قائلًا :

ـ (عمر) .. هل أنت ؟.. يا لى من غبىّ ، كيف لم ألحظ ذلك من قبل ؟ أنت تحب (نجلاء) .. أليس كذلك ؟

أحس (عمر) بالارتباك ، قائلًا :

ـ ماذا تقول ؟

(صلاح) :

ـ هذه هى الحقيقة .. وربما كنت تحبها طول الوقت .. فقد كنت أقرب إليها منى منذ طفولتنا ، ولكنك أخفيت هذه الحقيقة فى نفسك ، بعد أن عرفت بأمر ارتباطنا ، وبعد أن أوشكنا على الزواج .

ليس فى هذا ما يخجل .. بل إنه يدل على مدى نبلك ، وعلى أنانيتى التى أخفت عنى رؤية مشاعرك الجريحة .

إنك تحب (نجلاء) .. وهذه المرة لا تضع الفرصة .

قال (عمر) لنفسه :

ـ نعم .. هذه المرة لن أدع (نجلاء) لتضيع منى .. سأصرح لها بحبى ورغبتى فى الزواج منها .. خاصة وأننا قد أصبحنا متقاربين خلال الشهرين الماضيين ، على نحو أكثر من ذى قبل .. وأعتقد أنها تبادلنى مشاعرى .. وتحمل لى الكثير مما أحمله لها من حب .

أستطيعَ أن أفعل هذا الآن بضمير مستريح ، ونفس مطمئنة ، بعد أن أيقنت من أنه لم تعد توجد أية عاطفة حب بينها وبين (صلاح) .

وأخذ (عمر) يحلم طوال الطريق بمنزل العائلة ، الذى يضمه مع (نجلاء) ويجمع بين (صلاح) وزوجته ، وقد التفوا جميعًا حول الأب والأم فى جو عائلى بهيج .

وكان الحلم جميلًا ..

جميلًا للغاية .

★ ★ ★



١١ - وداعًا يا أبى ..

جلس (صلاح) يكتب خطابًا إلى زوجته بعد وداعه لأخيه بأسبوعين .. ولم يذكر عنوانه الجديد .. بل أخبرها بكل الظروف الجديدة التى طرأت عليه .. وبحياته الجديدة فى (الإسكندرية) وسألها إن كانت ترغب فى الحضور إليه ، أن تستقل القطار بعد خمسة أيام من استلامها لخطابه فى ساعة محددة .. وأنها ستجده ينتظرها فى محطة الوصول (بالإسكندرية) وطلب إليها ألا تخبر أحدًا بذلك الأمر فى الوقت الحالى .

واستلمت (عُلا) خطابَ (صلاح) فى مقر عملها ، بالبنك الزراعى بالبلدة .. وكانت سعادتها بوصوله لاتوصف .. فها هى ذى قد اطمأنت أخيرًا على أخبار صلاح ، وعلى أنه لم يتخل عنها ولم ينسها كما تصورت .

ولكنها تحيرت طويلًا أمام دعوته ، ولم تعرف ماذا تفعل ؟ إنها فى أشد الحاجة إليه وشديدة الشوق إلى رؤياه .. وهى فى النهاية زوجته .. برغم أن هذه الزيجة جاءت بطريقة خاطئة ، وعليها أن تذهب إليه .

ولكن ماذا عن أبيها .. وعن إخوتها ؟.. هل تخبره بكل شيء ، أم ترحل دون ذلك ، تاركة له رسالة تفسر له فيها الأمر .

لابد أن الخبر سيأتى شديد الوقع عليه .. ولن يتقبل أمر هذا الزواج والطريقة التى تم بها بسهولة .

إنها لا تدرى ماذا تفعل ؟

وسرعان ما تلاشت سعادتها المؤقتة بتسلمها لخطاب (صلاح) .. وأخذت العبرات تسيل على وجنتيها ، وهى تتساءل قائلة :

ـ لماذا ؟ لماذا يا (صلاح) وضعتنى فى هذا الموقف الحرج ؟ وكيف قبلت أن يحدث لى ذلك ؟

كيف قبلت أن يكون بيننا زواج نخجل منه على هذا النحو ؟

واستطردت وهى تقول لنفسها بمرارة :

ـ ولكنه لم يكن خطأك وحدك .. لقد كنت شريكتك فى ذلك الخطأ .. وعلىَ أن أتحمل تبعاته .

عاد (البحراوى) إلى منزله بعد يوم عمل شاق فى الأرض .. وتعجب لعدم استقبال (عُلا) له لدى الباب كعادتها دائمًا .

كان الطعام معدًا فى انتظاره كما هى العادة .. لكن ابنته لم تكن موجودة فى أى مكان فى الدار ، فصاح بابنه :

ـ (محمود) .. ألم تحضر أختك من البنك بعد ؟

(محمود) :

ـ بل عادت مبكرة .. وتركت معى خطابًا مغلقًا ، طلبت أن أقدمه لك وألا أقرأه إلا فى حضورك .

ازداد استغراب الرجل وهو يقول :

ـ خطاب ؟!

رد عليه ابنه قائلًا :

ـ نعم .. وها هو ذا .

(البحراوى) :

ـ وأين ذهبت هى ؟

(الابن) :

ـ لست أدرى .

توجس الأب شرًا وهو يقول :

ـ ليس من عادة (عُلا) أن تغادر الدار فى مثل ذلك الوقت .

ونظر إلى ابنه قائلًا :

ـ إقرأ الخطاب .

قرأ الابن خطاب شقيقته ، قائلًا :

- « والدى العزيز :

يؤلمنى أن أكون مصدرًا لأى ألم أو شقاء لك .. ولكنى أرانى فى نفس الوقت عاجزة عن تفسير ما حدث .. ولا توضيح الأسباب التى دفعتنا إلى اتخاذ هذا القرار .. ولكن من المؤكد أنها كانت لحظة تحكمت فيها عواطفنا ، وخشينا أن تفرقنا الظروف المحيطة بنا ، فاندفعنا لتنفيذ قرار ، استقر رأينا عليه أنا و (صلاح) .. لقد تزوجنا .. نعم يا أبى .. لقد تزوجت (صلاح) منذ أربعة أشهر .. وأقسم بالله إننا لم نخف هذا الأمر عن الجميع ، ولم نندفع إلى هذا الزواج السرى لذنب ارتكبناه ، أو لخطأ خشينا افتضاح أمره ، كما يتبادر إلى ذهنك .. ولكننا اندفعنا إلى هذا الزواج ، لأن عواطفنا كانت أقوى منا ، ومن كل المعوقات التى كانت تقف فى طريق حبنا .. وستجد صورة من عقد الزواج تركتها لك تحت وسادتى ، لكى تتأكد من أننا قد تزوجنا زواجًا شرعيًا على سنة الله ورسوله .

ولقد اضطررت للسفر إلى زوجى ، بعد أن أرسل فى طلبى ولم أجد فى نفسى القدرة على مواجهتك بكل ما حدث ، فتركت لك هذه الرسالة ، وأنا أعرف أنها لن تشفع لى عندك .. ولكن أرجو أن تغفر لى وتسامحنى ذات يوم ، وأن ترعى إخوتى » .

(عُـلا)

كانت (عُلا) تعلم أن هذه الرسالة ستسبب ألمًا لأبيها .. ولكنها لم تتصور أن هذا الألم سيكون شديدًا إلى هذه الدرجة .

لقد تهاوى الرجل على الأريكة ، وهو لا يصدق ما قرأه له ابنه منذ لحظات .. لم يدر بخلده أبدًا أن ابنته ستفعل شيئًا كهذا .

تتزوج فى السرّ من ابن (رشدى السعدنى) .. ثم تفر من المنزل لتلحق به على هذا النحو ، كما لو كانت قد ارتكبت خطيئة .

وأخذ جسده يرتجف من شدة الحزن والغضب .. ثم ما لبث أن سالت العبرات من عينيه مرددًا :

- أهكذا يا (عُلا) تفعلين بأبيك هكذا !؟

واندفع إلى حجرتها ليبحث عن صورة عقد الزواج تحت الوسادة ، ثم طلب من ابنه أن يقرأه له .

وما إن أكد له ابنه صحة عقد الزواج ، حتى هدأت نفسه قليلًا .. ولكن لبضع لحظات راح بعدها يصب لعناته على الفتاة وهو يردد :

- حسبى الله ونعم الوكيل .

وعاد ينحى على نفسه باللائمة ، ويزعم أنه سبب ما حدث ، وأنه لولا قسوته على الفتاة وتعنيفه الشديد لها ،

يوم اكتشف حقيقة علاقتها بـ (صلاح) ، وما سمعه عن صلتهما الوطيدة من أهل القرية ، ربما لم تكن لتخفى عنه ما اعتزمته .. ولم تكن لتفر من المنزل على هذا النحو .. ولكنه خوفها منه ، وإحساسها بأنه سيرفض زواجها من (صلاح) ، إشفاقًا عليها وعلى نفسه من غضب ورفض (رشدى) بك ، هو الذى دفعها إلى عدم التصريح له بما انتوته مع هذا الشاب .

ولكن أيًا كان الأمر .. لم يكن لها أن تفعل شيئًا كهذا .. لم يكن لها أن تستمر فيه منذ البداية .

كيف يمكن لـ (عُلا) الفتاة الطيبة الرقيقة أن تفعل هذا ؟

تساير شابًا سيئ السمعة .. ومن وسط غير وسطنا .. ثم تتزوجه دون علمى ، وتغادر المنزل لتلحق به دون علمى .. كيف طاوعها قلبها على أن تفعل شيئًا كهذا بأبيها ؟

كيف يمكننى أن أرفع عينى فى عيون الناس حولى ، بعد ذلك ؟ وماذا أقول لهم ؟ وماذا سيفعل بى (رشدى السعدنى) وبأطفالى ، إذا ما علم بهذا الأمر ؟

أسئلة كثيرة ظلت تدور فى رأسه .. حتى أنه نسى أنه فى حاجة ماسة إلى الطعام ، وأنه متعب من عمل طول اليوم .

وغادر داره ليسير بين الحقول هائمًا على وجهه .

ووجد نفسه أخيرًا يقف أمام منزل (رشدى السعدنى) ، وقد قاربت الساعة العاشرة مساء .

وهم بأن يطرق الباب .. لكنه تراجع عن ذلك .. فهو حتى هذه اللحظة لم يكن يدرى ماذا يفعل ؟.. وماذا يقول ؟

وأخيرًا وجد نفسه ينخرط فى البكاء ، وهو يجلس إلى عتبة الباب .

وأثار وجوده انتباه الغفير فاقترب قائلًا :

ـ من هناك ؟

واقترب من الرجل قائلًا بدهشة :

ـ (بحراوى) .. ماذا تفعل هنا :

وتأمله على ضوء مصباحه الضوئى ، قائلًا :

ـ أتبكى أيها الرجل ؟

قال له (بحراوى) متوسلًا :

ـ (صفوان) .. أريد أن أقابل (رشدى) بك .

قال الحارس معترضًا :

ـ وما هو الأمر العاجل ، الذى يدعوك لمقابلة البك فى ساعة كهذه ؟

(البحراوى) :

ـ فقط دعنى أقابله .

(صفوان) :

ـ البك فى المصنع ولم يعد بعد .

وفى تلك اللحظة تراءى لهما أنوار سيارة قادمة .. فقال له الحارس وهو يشير إلى السيارة :

ـ ها هو ذا البك قد وصل .

ونظر (رشدى) إلى (بحراوى) باستغراب .. قائلًا :

ـ (بحراوى) .. ما الذى أتى بك فى هذا الوقت ؟

(بحراوى) :

ـ أريد أن أتحدث إليك يا (رشدى) بك .

(رشدى) :

ـ ثانية .. ماذا تريد منى هذه المرة ؟ لقد طردت ابنى بسببك من المنزل .

(بحراوى) :

ـ ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد .

(رشدى) :

ـ ماذا تعنى ؟

تلفت حوله .. قائلًا للحارس :

ـ ضع السيارة فى الجراج .

ثم أشار إلى (بحراوى) قائلًا :

ـ تعال معى .

واصطحبه إلى حجرة مكتبه داخل المنزل ، وهناك سأله :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

قدم له (بحراوى) الخطاب الذى أرسله ابنه ، قائلًا :

ـ لقد غادرت ابنتى الدار أيضًا هذا الصباح .. أتعرف إلى أين ذهبت ؟

ذهبت لتلحق بابنك .. وهذا الخطاب يفسر كل شىء .

اطلع (رشدى) على الخطاب الذى خلفته (غلا) .. وقد بدا غير مصدق لما يقرؤه .. وما لبث أن احتقن وجهه بشدة وهو يقول :

ـ كذب .. هذا كذب .. لا يمكن أن يكون ابنى قد تزوج من ابنتك .

قدم له (بحراوى) صورة عقد الزواج ، قائلًا :

ـ هذه صورة من عقد الزواج .

قال (رشدى) حانقًا :

ـ أوصل به الأمر إلى هذا الحدّ .. يتزوج بدون علمى ومن ابنتك .

(بحراوى) :

قد لا تعنى ابنتى بالنسبة لك شيئًا يا (رشدى) بك .. ولكنها بالنسبة لى كل حياتى ، وأنا أيضًا لم أكن لأوافق

على هذه الزيجة لو علمت بأمرها مسبقًا .. إن ابنك هو المسئول عن هذا الأمر .. ولم آت إليك إلا لأعرف منك عنوانه .

أجابه (رشدى) وصوته يقطر مرارة :

ـ لم أعد أعرف له عنوانًا .. لقد أسقطت هذا الفتى من حياتى ، ولم يعد يهمنى أن أعرف عنه شيئًا بعد الآن .

(بحراوى) :

ـ ربما لا يهمك أنت .. ولكن يهمنى أنا .. فابنك مهما فعل فهو رجل ، أما ابنتى فلا يمكننى التخلى عنها على هذا النحو ، والاستسلام لمثل هذا التصرف الذى ارتكبته دون علمى .

نحن يا (رشدى) بك فقراء كما تعلم .. إلا أننا شرفاء ، والشرف بالنسبة لنا يعنى أنه عندما تتزوج ابنة أحدنا ، فإن ذلك لا بد أن يكون علنًا ووسط أشهاد ووفقًا لتقاليدنا .. وابنك وابنتى لم يراعيا أى شىء من هذا .

قال (رشدى) محتدًا :

ـ ابنتك تتحمل الجانب الأكبر من مسئولية هذا الفعل .. فما كان يتعين عليها أن توافق على الزواج بهذه الصورة .. إنك لم تحسن تربيتها على النحو الواجب .

علا صوت (البحراوى) قائلًا :

ـ أرجوك يا (رشدى) بك .. لا داعى لهذا الكلام .

ثم سارع بخفض صوته مستطردًا :

ـ ابنتى وقعت تحت إغراء ابنك .. ونحن الآن نتحمل ثمن خطئهما .. وعلى كل حال فإن ما يخفف من آثار هذا الخطأ بعض الشىء ، أنهما قد تزوجا .. وعلينا الآن أن نتفاهم ، لكى نجعل هذا الزواج علنيًا ومشرفًا أمام أهل البلدة :

قال (رشدى) وقد ازدادت حدة نبراته :

ـ هذا ما يزيد الأمر سوءًا بالنسبة لى .. فكيف يصاهر ابن (رشدى السعدنى) مزارعًا فقيرًا كان يعمل أجيرًا لديه ؟!

(بحراوى) :

ـ سامحك الله يا (رشدى) بك .. على كل حال لو كان الأمر بيدى كما قلت لك ، لمنعت هذا الزواج منذ البداية .

(رشدى) :

ـ وما أدرانى أنك لم تنصب هذا الشرك أنت وابنتك للولد ، كى تورطاه فى هذه الزيجة ، وتضعونا أمام الأمر الواقع ؟

قال له (البحراوى) وقد عاد صوته ليعلو :

ـ لقد عملت فى أرضك خمسة عشر عامًا ، وأنت تعرف جيدًا أنه لا أخلاقى ولا مبادئى ، تسمح لى بأن أكون ممن ينصبون شراكًا من هذا النوع .

وهناك شىء آخر يجب أن تعرفه جيدًا يا سعادة البك .. إننى لا يشرفنى مطلقًا أن تتزوج ابنتى من شاب عاطل مستهتر سيئ السيرة مثل ابنك .

صاح (رشدى) قائلًا فى انفعال :

ـ (بحراوى) .. كيف تجرؤ .. ؟

قاطعه (بحراوى) قائلًا :

ـ كفاك تعاليًا وامتهانًا لكرامة الناس .. ويكفى ما فعله ابنك بنا .

إن كل ما أريده الآن كما سبق أن قلت ، هو أن يحضر ابنك إلى هنا وندبر معًا أمرًا لجعل هذا الزواج علنيًا أمام أهل البلدة .

وبعدها نتفق على تطليقهما .. لأننى غير موافق على هذه الزيجة أكثر منك ، وكل ما أريده هو الحفاظ على كرامتى وكرامة ابنتى أمام الناس .. هل تفهمنى يا (رشدى) بك ، إنها مسألة شرف وكرامة .

ولم يعد هناك ما يقال .

★ ★ ★

١٢ ـ لقاء لم يتم ..

أنهى (صلاح) عمله فى المصنع .. ثم توجه إلى حجرة تغيير الملابس ليبدل ثيابه وهو يصفر ، وقد بدت على وجهه ملامح السعادة .

ونظر إليه زميله فى العمل ، قائلًا :

ـ أتعرف هذه أول مرة أراك فيها سعيدًا هكذا يا باشمهندس .

التفت إليه (صلاح) مبتسمًا وهو يقول :

ـ أما زلت مصرًا على أن تدعونى باشمهندس يا ريس (جمال) .. مع أنك رئيسى فى العمل ، وأنا واحد من ضمن العمال الذين يتعلمون منك .

قال له الرجل فى خجل :

ـ العفو يا باشمهندس .. كلنا نعلم أنك لست مثل بقية العمال .. وأنه لولا ظروف خاصة بك ما كنت تشاركنا مثل هذا العمل .

(صلاح) :

ـ وما الذى يدعوك إلى هذا القول :

أجابه الريس (جمال) قائلًا :

- يا باشمهندس ، نحن ناس بسطاء نعم .. ولكن لنا نظرة فى الشخص وقدرة على الفهم .. إن شخصًا مثلك .. مظهرك .. طريقة كلامك .. كل شىء يدل على أنك لا تنتمى إلى طبقة العمال أمثالنا .. وإن كنت والحق يقال .. لا تقل عن أى منا مهارة فى العمل .

(صلاح) :

- إذن فأنتم ما زلتم لا تعدوننى واحدًا منكم .

ورد عليه الرجل ، قائلًا :

- يعلم الله كم أنت عزيز على نفوسنا .. وكم نحمل لك من مودة وتقدير .. فمنذ أن وضعت قدمك فى المصنع ، ونحن لم نر منك إلا كل رجولة وشهامة ، كما أن لديك جلدًا على العمل .. ولكن هذا لن يغير من حقيقة أنك لا تنتمى لهؤلاء العمال ، وأن وراءك قصة تحرص على أن تخفيها .

وعلى كل حال هذا ليس موضوعنا .. المهم أنت لم تخبرنى بعد .. ما سر هذه السعادة المفاجئة التى تبدو عليك :

(صلاح) :

- زوجتى ستأتى إلى (الإسكندرية) اليوم يا ريس (جمال) .. ستأتى لتعيش معى .

نظر إليه الرجل فى دهشة ، قائلًا :

- زوجتك .. هذه أول مرة أعرف فيها أنك متزوج .. إنك لم تخبرنى بشىء كهذا من قبل .

(صلاح) :

- لم تسمح الظروف بذلك .. المهم لقد أرسلت فى استدعائها .. وبالأمس أرسلت لى تلغرافًا على مكتب البريد المجاور للمصنع ، تخبرنى فيه أنها ستأتى اليوم الساعة السادسة .

ابتسم الرجل قائلًا :

- هذا خبر سار .. أعتقد أن وجود زوجتك معك ، سيضفى على حياتك المزيد من البهجة والاستقرار .

ثم نظر فى ساعته ، قائلًا :

- ولكن عليك أن تسرع إذن لاستقبالها ، فالساعة الآن الخامسة والنصف .. ولا بد أنها الآن فى الطريق .

نظر إليه (صلاح) مضطربًا وهو يقول :

- الخامسة والنصف ؟

ثم تطلع إلى ساعته وهو يضرب بقبضته جبهته قائلًا :

- ساعتى متأخرة ، فهى تشير إلى الخامسة إلا ربعًا .. لا بد أن أسرع إذن للحاق بها ، فهى ستنتظرنى فى محطة القطار .

واندفع خارجًا من حجرة تبديل الملابس وهو يركض محاولًا تعويض هذا التأخير .

ووقف فى الشارع وهو يلوح بيده محاولًا إيقاف أية سيارة أجرة تمر به .

وكانت الأمطار تهطل بشدة ، مما صعب من قدرته على إيقاف سيارة تقله إلى محطة القطار فى هذا الجو الردىء .

وزاده التأخير توترًا ، فاندفع يركض فى عرض الطريق محاولًا إيقاف أية سيارة أجرة بأى ثمن .

وأخيرًا توقفت له سيارة على الجانب الآخر من الطريق .. فاندفع نحوها .. وقد ابتلت ثيابه وجسده .

ولكن بينما هو يندفع فى طريقه إلى السيارة .. إذا بسيارة أخرى تندفع نحوه ، ومع صراخ المارة اصطدمت به السيارة ، بعد أن عجز قائدها عن السيطرة على فراملها فى الوقت المناسب .

وأطاحت الصدمة بـ (صلاح) .. فسقط على الأرض عاجزًا عن الحركة .

وفقد وعيه تمامًا .

★ ★ ★

استرد (صلاح) وعيه ، ليجد نفسه ممددًا على الفراش ، وبجواره فتاة ترتدى زى التمريض ، وقد وقفت ترقب جهاز (الجلوكوز) المتصل بذراعه .

وأحس بالجزع عندما رأى نفسه على هذا النحو .. وأحس بصوته واهنا وهو يسأل الفتاة ، قائلًا :

ـ أين أنا ؟

ابتسمت له الفتاة قائلة :

ـ حمدًا لله على سلامتك .. إنك فى المستشفى كما ترى .

ازداد جزعه وهو يردد قائلًا :

ـ المستشفى .. كيف .. وماذا حدث ؟

وحاول أن يتحرك .. ولكنه أحس بألم شديد أعجزه عن الحركة .. فسارعت الفتاة إليه لتحول بينه وبين ذلك قائلة :

ـ أرجوك .. لا تحاول أن تتحرك ، أو تبذل أى مجهود .. فقد أجريت لك عملية جراحية منذ أربع ساعات فقط .

(صلاح) :

ـ عملية .

وصمت برهة ، ثم أردف قائلًا :

ـ آه .. تذكرت .. لقد صدمتنى تلك السيارة حينما كنت أحاول اللحاق بسيارة الأجرة .

(الممرضـة) :

- وقد تولى صاحب السيارة التى صدمتك أمر إحضارك إلى هنا .. وظل بجوارك لمدة نصف ساعة بعد أن انتهيت من إجراء العملية .. ثم قال إنه سيعود مرة أخرى للاطمئنان عليك بعد الانتهاء من إدلائه بأقواله فى محضر الشرطة .

وسألها (صلاح) قائلًا :

- هل حالتى خطيرة ؟

(الممرضـة) :

- لقد نزفت كثيرًا .. وكان لديك كسر فى أحد أضلاعك .. ولكن الدكتور (نبيل) قام باللازم .. وأجرى لك عملية ناجحة .

وكل ما تحتاج إليه الآن هو الراحة لعدة أيام ، قبل أن تفارق هذا الفراش .

(صلاح) :

- إننى أشعر بألم شديد فى جانبى .

(الممرضـة) :

- هذا أمر طبيعى .. فقد أجريت العملية لتوك .. وعلى كل حال ، سأستدعى لك الدكتور (نبيل) .. فقد طلب أن يراك عندما تسترد وعيك .

وفجأة تذكر (صلاح) أنه كان فى طريقه لاستقبال (عُلا) .. قبل أن يتعرض للحادث .

فهتف قائلًا :

- (عُلا) .. كان يتعين علىّ أن أذهب لاستقبالها منذ عدة ساعات .

وزاده الانفعال ألمًا ارتسمت ملامحه على وجهه .. فعادت الممرضة لتنبهه ، قائلة :

- أرجوك .. قلت لك لا داعى لأى مجهود زائد .

صاح ملتاعًا :

- ولكن زوجتى .. لقد كنت فى طريقى لاستقبال زوجتى فى المحطة قبل أن أتعرض لهذه الحادثة .. تُرى ماذا فعلت الآن ؟

قالت له الممرضة محاولة تهدئة خواطره :

- لا تقلق هكذا .. لابد أنها ذهبت إلى المنزل .

(صلاح) :

- المشكلة .. أنها لا تعرف عنوانا للمنزل .. وهذه هى المرة الأولى التى تحضر فيها إلى (الإسكندرية) .. لابد أنها عادت إلى البلدة مرة أخرى .. أو أنها هائمة على وجهها تبحث عنى الآن .

وقال وكأنه يحادث نفسه :

- إنها لا تستطيع أن تعود للبلدة بالطبع ، بعد أن غادرتها على هذا النحو .. ولو عادت فإنها لن تسلم من أذى أبيها .

ليتها تكون قد أحضرت معها نقودًا كافية لكى تمضى هذه الليلة فى أى فندق .

ولكن كيف سيمكننى العثور عليها ؟

ولام نفسه قائلًا :

- ليتنى كنت قد أعطيتها عنوان المنزل أو المصنع .. لابد أنها قلقة على الآن .. أو تكون قد تصورت أننى تراجعت عن دعوتى لها ، وأخلفت موعدى معها .

قالت له الممرضة وقد لاحظت اضطرابه :

- هل تحب أن أرسل أحدًا للبحث عنها ؟

قال (صلاح) وكأنه يرجوها :

- ليتك تفعلين ذلك .. سيكون هذا جميلًا لن أنساه لك .

وفى أثناء ذلك كانت (عُلا) قد غادرت القطار ونزلت إلى رصيف المحطة فى تمام الساعة السادسة مساءً .

وكانت المحطة تغص بالمسافرين القادمين والراحلين .. فوقفت (عُلا) وفى يدها حقيبة ثيابها ، وهى تجيل البصر فى كل وجه يقع عليه نظرها .

وخف الزحام شيئًا فشيئًا .. حتى لم يعد باقيًا داخل المحطة إلا بعض الحمالين وموظفو المحطة ، وعدد قليل من الأشخاص ، ممن ينتظرون القطار القادم .

وظلت (عُلا) تغدو وتروح داخل المحطة ، وقد ارتعدت أوصالها من شدة البرد ، وقد أحست بوحشة .. وهى تنظر إلى مدخل المحطة تارة وإلى ساعتها تارة أخرى .

لقد جاءت فى الموعد الذى حدده لها (صلاح) ، وفى نفس القطار الذى أوصاها بركوبه ، فأين هو ؟ ولماذا لم يحضر بعد ؟

وبدأ الخوف والقلق يعتريانها ، وهى ترى تحديق روّاد المحطة بها .. فتراجعت إلى أحد الأركان وهى منكمشة على نفسها ، وقد أخذت تمنى نفسها بحضوره .

لكن الوقت أخذ يمر عليها ثقيلًا دون أن يحضر .

واقترب منها أحد الحمالين ، قائلًا :

- هل تريدين أن أحمل حقيبتك إلى إحدى سيارات الأجرة ؟

فقالت فى وجل :

- كلًا .. إننى أنتظر شخصًا قد يحضر الآن .

انصرف الحمال ، وظلت (عُلا) منكمشة فى مكانها .

وبعد قليل اقترب منها أحد موظفى المحطة ، وقد لاحظ اضطرابها قائلًا :

ـ عفوًا يا بنيتى .. ولكنى أراك واقفة فى هذا المكان منذ ساعتين .. وقد قال لى الحمال إنك تنتظرين شخصًا ما .. فهل هذا صحيح ؟

أجابته قائلة :

ـ نعم .. إننى أنتظر زوجى .

عاد ليقول :

ـ ولكن يبدو أنه تأخر عليك طويلًا .. والجو بارد كما ترين .

قالت بضعف :

ـ وماذا أفعل ؟

ـ أتعرفين عنوانه ؟

وأجابته قائلة :

ـ كلا .. إنها المرة الأولى التى أسافر فيها إليه .

قال لها مشفقًا :

ـ إن كان لك أو له أهل أو معارف فى (الإسكندرية) فيمكنك أن تذهبى إليهم ، ربما دلوك على سبب تأخيره .

قالت ، وهى ترتعد من شدة البرد :

ـ إنى لا أعرف أحدًا هنا .

وقال لها الرجل وقد ازداد إشفاقًا :

ـ إذن فلتذهبى هذه الليلة مؤقتًا إلى أحد الفنادق ، لتبيتى فيه ليلتك ، وبعد ذلك تدبرين أمرك .. فلو بقيت واقفة هكذا فلابد أنك ستصابين بنزلة برد .

ردت عليه قائلة :

ـ مع الأسف إننى لم أحضر معى نقودًا كافية لقضاء الليلة فى الفندق .. فقد كنت أعتمد كلية على لقائى به هنا .

ـ إذن أنصحك بالعودة إلى المكان الذى جئت منه .

انتفضت قائلة :

ـ لا أستطيع .

تحير الرجل من أمرها ، قائلًا :

ـ لماذا ؟ إن القطار التالى ...

قاطعته قائلة :

ـ لا يمكننى العودة دون مقابلة زوجى .

ـ ولكن من الواضح أنه لن يحضر هذه الليلة .

(عُلا) :

ـ سأنتظره .

قال الرجل بلهجة حنون :

ـ إنك لن تستطيعى مقاومة هذا البرد طويلًا .. اسمعى ، أنتِ فى مثل عمر ابنتى ، ولدىّ بنتان أخريان سواها أصغر

منها سنًا بالإضافة إلى زوجتى ، وأنا الآن فى طريقى إلى العودة لمنزلى ، بعد أن أنهيت عملى هنا فى المحطة .

فلو أردت اصطحبتك معى إلى المنزل ، لتقضى ليلتك ، وبعد ذلك تدبرين أمرك .. فما قولك ؟

بدت الفتاة مترددة لبرهة من الوقت .. ولكنها كانت تشعر بالبرودة تلسع جسدها ، وأحست باليأس من حضور (صلاح) .. وبدت لها المحطة موحشة بعد أن بدأت تخلو حتى من العدد القليل من الأفراد ، بعد وصول آخر قطار .. فلم تجد بدًا من قبول دعوة الرجل .. وقد أحست أنه لم يعد لديها خيار آخر .

وذهبت معه .

* * *



١٣ - الزوجة المفقودة ..

تطلع (صلاح) إلى الممرضة بلهفة ، قائلًا :

- هل وجدتها ؟

أجابته قائلة :

- مع الأسف الشخص الذى أرسلته ، لم يعثر عليها فى المحطة .

ارتسمت على وجهه ملامح الانزعاج الشديد ، وهو يقول :

- تُرى أين هى الآن ؟ أتكون قد عادت إلى البلدة ؟.. أم أنها ما زالت فى (الإسكندرية) ؟

وإذا كانت فى (الإسكندرية) ؟ فأين تكون قد ذهبت ؟.. إنها لا تعرف أحدًا هنا .

لا بد أن أبحث عنها بنفسى .

قالت له الممرضة معترضة :

- ماذا تقول ؟ كيف يمكنك أن تفكر فى البحث عنها ، وأنت فى هذه الحالة ؟ لقد أجريت لك عملية جراحية .. والطبيب يمنعك من الحركة الزائدة فى سريرك ، وأنت تقول إنك تريد أن تغادره للبحث عنها ؟

(صلاح) :
- لا يمكننى أن أقف مكتوف اليدين هكذا .
(الممرضـة) :
- ربما لم تحضر زوجتك أصلًا .
(صلاح) :
- مستحيل .. لقد أكدت لى أنها ستحضر .
(الممرضـة) :
- إذن سأرسل الشخص الذى ذهب للبحث عنها من قبل .. ليحاول العثور عليها مرة أخرى .. فلا بد أنها ستتردد على المحطة مرة ثانية ، إذا كانت قد جاءت إلى (الإسكندرية) .

فكر (صلاح) قليلًا ، وقد انتابته الهواجس .. ثم ما لبث أن قال وهو يشير إلى التليفون المجاور :
- لن يفيد هذا .. لا بد من أن أطمئن على الأمر بنفسى .. أهذا التليفون مباشر ؟
أجابته قائلة :
- نعم .. ويمكنك استخدامه فى إجراء اتصالات خارجية لو أردت .

وهم (صلاح) بالالتفات جانبًا لإدارة قرص التليفون ، ولكنه أحس بألم شديد فى جنبه ، فسارعت الممرضة إليه قائلة :

- لا تتعب نفسك .. اذكر لى الرقم الذى تريده ، وأنا أتصل لك به بنفسى .

أعطاها (صلاح) رقم تليفون مصنع البلاط الذى يمتلكه أبوه ، قائلًا :
- إذا ردّ عليك أحد فاطلبى الأستاذ (عمر) على التليفون .

قالت له الفتاة بعد أن أجرت المكالمة :
- إنه غير موجود بالمصنع .
أعطاها (صلاح) رقم مصنع الطوب ، قائلًا :
- حاولى أن تعثرى عليه فى هذا الرقم .

ولكن الرد جاء سلبًا أيضًا هذه المرة ، فلم يكن (عمر) موجودًا فى مصنع الطوب ، وأحس (صلاح) باليأس ، فى حين قالت الممرضة وهى تنظر إلى ساعتها :
- هل تريد أن أجرى لك اتصالًا آخر ؟
(صلاح) :
- كلّا .. أشكرك على كل حال .
عادت تنظر إلى ساعتها مرة أخرى ، قائلة :
- آسفة يا أستاذ (صلاح) لعجزى عن مساعدتك .. إننى مضطرة لتركك الآن .. فلا بد من أن أمر على عدد من المرضى الآخرين .

(صلاح) :

- بالطبع .. بالطبع .. تفضلى .. أنا الذى آسف لأننى عطلتك وشغلتك معى بأمرى .

قالت الفتاة وهى تشعر بتعاطف حقيقى معه :

- لا تقل هذا .. إننى هنا لخدمتك .. وليتنى أجد وسيلة لمساعدتك فى الاهتداء إلى زوجتك .

(صلاح) :

- هل يمكنك أن تنقلى التليفون بجوارى على الفراش قبل انصرافك ؟

أجابته قائلة :

- بالطبع .

وسارعت بنقل التليفون بجواره على الفراش .. ثم غادرت الحجرة .

ووضع (صلاح) التليفون أمامه على ساقيه .. وأخذت أصابعه تعبث بالقرص وهو يفكر .. هل يتصل بمنزله فى البلد ؟ ولكن ماذا لو رد عليه أبوه ؟

إنه برغم الأزمة التى يواجهها ، يشعر برهبة شديدة من محادثة والده .. حتى ولو من خلال التليفون .

ولكن لا بد له من الاطمئنان على (غلا) .. ومعرفة ما إذا كانت قد غادرت البلدة أم لا ، وإذا كانت قد

غادرتها .. فهل تكون قد عادت إليها مرة أخرى بعد أن فقدت الأمل فى العثور عليه ؟ ولن يساعده فى هذا الأمر سوى أخيه (عمر) .

ولكن ماذا لو أن الذى رد عليه كان هو والده ؟ ماذا يقول له ؟ وماذا سيكون رد فعله عندما يسمع صوته ؟

وظلت أصابعه تعبث فى قرص التليفون وهو فى حيرة وقلق .

وأخيرًا هداه تفكيره إلى الاتصال بابنة خالته .. إنه يستطيع أن يبلغها بالأمر ، وهى بدورها يمكنها أن تتصل بـ (عمر) فى المنزل ليطمئنه على (غلا) .

نعم .. هذا سيكون أفضل .. سيجعل (نجلاء) وسيلة الاتصال بينه وبين أخيه ، وهى تستطيع أن تتصرف فى هذا الأمر .

★ ★ ★

فى أثناء ذلك كان (رشدى السعدنى) جالسًا فى حجرة مكتبه بمنزله ، يطالع بعض الأوراق الموضوعة أمامه ، حينما دخل عليه (عمر) ووجهه ينطق بالبشر والسعادة قائلًا :

- مساء الخير يا أبى .

نظر إليه (رشدى) من وراء منظاره قائلًا :

ـ مساء الخير يا (عمر) .. أين كنت طوال اليوم ؟

(عمر) :

ـ كنت لدى زوج خالتى وابنته .

(رشدى) :

ـ شىء عظيم .. تتركنى طوال اليوم أتنقل ما بين مصنعى الطوب والبلاط والأرض الزراعية وحدى .. وأنت لدى زوج خالتك وبصحبة ابنته .

(عمر) :

ـ ولماذا تتعب نفسك يا والدى ؟ (عبد العال) و (فرج) ينظمان حركة العمل فى المصنعين على أكمل وجه ، وقد أطلعتهما على ما يتعين عليهما عمله اليوم حتى أعود .

(رشدى) :

ـ ومنذ متى تعتمد على (عبد العال) و (فرج) فى إدارة أمور المصنع ؟ أنت لا تعجبنى هذه الأيام يا (عمر) ، لقد بدأت تنشغل عن عملك كثيرًا .. برغم أنك تعرف أنه لم يعد لى سواك أعتمد عليه فى إدارة أعمالى وأملاكى .. فأنا قد كبرت .. وأخوك كما تعرف لم يعد له وجود بيننا .. وحتى لو كان موجودًا فوجوده كعدمه .

قال (عمر) مبتسمًا :

ـ أعطاك الله الصحة يا أبى .. وتأكد أنه يمكنك الاعتماد علىَّ .

(رشدى) :

ـ هذا ما أرجوه .

ولكنه ما لبث أن حدجه بنظرة ثاقبة ، قائلًا :

ـ ولكن قل لى .. ما هو موضوع زياراتك المتكررة هذه لمنزل زوج خالتك ؟

(عمر) :

ـ وهل هناك ما يمنع من أن أزور بنت خالتى وزوج خالتى ؟

(رشدى) :

ـ كلَّا .. ولكن ألاحظ أن هذه الزيارات قد زادت عن حدها هذه الأيام ، برغم أنك أمضيت فترة طويلة لا تزورهما خلال الأشهر الماضية .

(عمر) :

ـ لقد تبدل الأمر يا أبى .

نزع (رشدى) منظاره وهو ينظر إلى ابنه ، قائلًا :

ـ أى أمر .. إننى لا أفهم ما تعنيه ؟

(عمر) :
- أبى .. أريد أن أتزوج (نجلاء) .
لم يبد الأمر مفاجئًا بالنسبة للأب .. ولكنه صمت لبرهة وكأنه يفكر قبل أن يقول :
- كنت أعلم بهذا وأحسه .. أنت ابنى ، وكانت عيناك كثيرًا ما تفصح عن مشاعرك تجاه هذه الفتاة .. ولكن ارتباطها السابق بأخيك كان يمنعك .. أليس كذلك ؟
(عمر) :
- هو كذلك يا أبى .. ولم أبدأ فى الإفصاح عن هذه المشاعر .. كما لم أكن لأجرؤ على طلب هذا الزواج ، إلا بعد أن تأكدت أن هذا الأمر قد انتهى تمامًا .. إننى أحب (نجلاء) يا أبى .. أحبها منذ زمن بعيد ، ولم أجرؤ على التعبير عن هذا الحب عندما وجدتكما ترشحانها للزواج من (صلاح) ، ورأيته يسبقنى فى طلب يدها .
(رشدى) :
- ولماذا لم تفصح عن رغبتك هذه من قبل .. برغم انقضاء موضوع الارتباط بين أخيك وبينها منذ فترة طويلة ..
(عمر) :
- كان من الصعب على أن أطلب أن أحل محل أخى ..

كما أننى كنت أشعر بأن (نجلاء) ما زالت محتفظة بحبها لـ (صلاح) برغم تخليه عنها .
(رشدى) :
- والآن .. هل تأكدت من أن هذا الشعور قد انتهى ؟
(عمر) :
- نعم .. انتهى تمامًا .
(رشدى) :
- وأنها تحبك .
(عمر) :
- لو لم أكن واثقًا من هذا لما فاتحتك فى الأمر .. لقد قربت الشهور والأيام الماضية بينى وبين (نجلاء) على نحو لم يحدث من قبل .. وأصبحنا متأكدين من حقيقة مشاعرنا .
قال له (رشدى) فى حيرة :
- ولكن والدها .. هل تعتقد أنه سيكون مستعدًا لمصاهرتنا مرة أخرى بعد ما حدث ؟
(عمر) :
- بالطبع كان معارضًا فى البداية .. ولكنى استطعت اليوم واليوم فقط أن أقنعه بالموافقة على زواجنا .. وكل ما أحتاج إليه هو أن تأتى معى أنت والسيدة الوالدة لطلب يدها ، بعد موافقتكما طبعًا .

انفرجت أسارير (رشدى) لأول مرة منذ بداية هذا الحديث ، قائلًا :

ـ يا لك من خبيث .. إذن فقد دبرت كل شيء .. وأعددت للأمر عدته .. ثم جئت فقط لتصطحبنا أنا ووالدتك إلى منزل زوج خالتك .

(عمر) :

ـ ألم تكن ترغب دائمًا فى أن تكون (نجلاء) زوجة لأحد أبنائك ؟ هأنذا أسعى إلى تحقيق رغبتك .

(رشدى) :

ـ ألم أقل لك إنك خبيث ؟ أتريد يا ولد أن تقنعنى بأنك قد فعلت هذا لتحقق رغبة لى فقط ، أم أنها رغبتك أنت منذ البداية ؟

ابتسم (عمر) قائلًا :

ـ ألا تسعد لسعادتى .

نهض (رشدى) ليدور حول مكتبه وهو يحتضن ابنه فى سعادة ، قائلًا :

ـ بالطبع يا بنى .. ألف مبروك .. من الغد سأذهب معك أنا ووالدتك لنطلب لك يد (نجلاء) .. فلن أجد لابنى زوجة أفضل منها .

(عمر) :

ـ من الغد .. سريعًا هكذا ؟

(رشدى) :

ـ وفيم الانتظار ؟.. ألا تقول إن العروسة موافقة وكذلك أبوها ؟

(عمر) :

ـ نعم .. ولكن أليس من الأفضل أن ننتظر عودة (صلاح) ؟

تبدلت ملامح الأب ، وقد كست وجهه مسحة من الحزن وهو يقول :

ـ ليس هناك ما يدعونا إلى انتظاره .. ثم إن (صلاح) لن يعود .

(عمر) :

ـ لماذا تقول هذا يا أبى .. إن (صلاح) ...

ولكن صوت رنين التليفون فوق مكتب (رشدى) قطع عليهما حوارهما .

وامتدت يد (رشدى) لتتناول سماعة التليفون .

وما إن سمع صوت المتحدث حتى ابتسم ، قائلًا :

ـ أهلًا يا (نجلاء) .. كيف حالك يا بنيتى ؟.. تريدين محادثة (عمر) .. حسن .. سأجعلك تحادثينه .

وابتسم وهو ينظر إلى ابنه ، وفى يده سماعة التليفون قائلًا له بصوت خافت :

- يبدو أنك قد أثرت تأثيرًا كبيرًا على الفتاة .. ألم تكن لديهم طوال اليوم ؟ إنها حتى لم تحاول أن تطيل معى الحديث كعادتها .. بل من الواضح أنها متلهفة على الحديث إليك .

قال له (عمر) وقد أحس ببعض الخجل من والده :

- سأحادثها من التليفون الموجود فى الردهة .

قال له الأب وهو يقدم له سماعة التليفون :

- لا داعى لذلك .. يمكنك أن تحادثها هنا .. فأنا سأصعد إلى غرفتى وإذا وجدت والدتك مستيقظة ، فسوف أزف إليها الخبر السعيد .

تناول (عمر) سماعة التليفون من أبيه وانتظر قليلًا حتى فتح باب حجرة المكتب ليهم بمغادرتها .. حيث همس قائلًا :

- أهلًا يا (نجلاء) .. أما زلت مستيقظة ؟

وفجأة علا صوته ، وهو يقول :

- ماذا تقولين ؟.. (صلاح) فى المستشفى !..

ولم يكن الأب قد ابتعد عن الحجرة بعد .. حينما التقطت أذنه هذه العبارة الأخيرة ، وفجأة تغيرت كل مشاعر النقمة

والغضب التى كان يحملها لابنه الغائب .. وانهارت كل مظاهر الصلابة التى كان يحاول أن يتظاهر بها خلال غيابه .

واندفع إلى الحجرة مرة أخرى وكل ملامح وجهه تنطق بالجزع ، وهو يقول :

- أخوك (صلاح) فى المستشفى .. أهذا صحيح ؟

وهكذا سقط قناع الصرامة عن (رشدى) ، وظهر وجهه الحقيقى ..

وجـه الأب الحنـون .

* * *



١٤ ـ الأب ..

لم يستطع (صلاح) أن ينام ليلة أمس بسبب قلقه على زوجته .. خاصة وأن (عمر) لم يتصل به ، برغم أنه أعطى (نجلاء) نمرة تليفون المستشفى ، لكى تبلغ بها (عمر) ، حتى يمكنه الاتصال به ، ويخبره بما إذا كان قد وجد (غلا) فى البلدة أم لا .

وبرغم أن الطبيب قد طلب منه أن يتناول قرصًا منومًا حتى يمكنه أن ينام نومًا هادئًا ، إلا أنه أبى أن يتناوله ، وفضل أن يبقى متيقظًا فى انتظار اتصال تليفونى من عمر ، أو أى خبر يطمئنه على زوجته .

وظل غارقًا فى هواجسه وقلقه على زوجته حتى بدأ النعاس يغالب عينيه ، ويتسلل إلى جفنيه ، وهو يحاول أن يقاومه .

وأغمض عينيه لعدة دقائق ، تراءى له خلالها شبح لشخص بدا له أنه يعرفه ، وقد دخل إلى حجرته ، ووقف أمام فراشه ، وهو ينظر إليه بنظرات حانية ، وفتح عينيه فجأة ليرى أنه لم يكن يحلم ، وأن ما رآه كان حقيقة ..

وهتف قائلا :

ـ أبى .

كانت عينا الرجل مغرورقة بالعبرات .. وقال له وهو يحاول أن يبدو رابط الجأش أمامه .. وألا يسمح لتلك العبرات بأن تتساقط على وجنتيه :

ـ كيف حالك يا بنى ؟

عقدت المفاجأة لسان (صلاح) فلم يدر ماذا يقول ، فى حين استطرد الأب قائلا :

ـ لقد طمأننى الطبيب على حالتك .. والحمد لله أنك بخير .

(صلاح) :

ـ هل أخبرك (عمر) بمكانى ؟

(الأب) :

ـ لقد علمت مصادفة بما حدث لك .. ألم تكن تريد أن أعرف بالأمر ؟

(صلاح) :

ـ لم أكن أرغب فى إزعاجك .

(رشدى) :

لعلك لا تحملنى وزر ما حدث لك .

(صلاح) :

ـ وما الذى يدعونى إلى ذلك ؟ إنك غير مسئول عما حدث لى بالطبع .

(رشدى) :

- ربما تظن أن طردى لك من المنزل .. وتخوفك من مصارحتى بأمر زواجك .. هو الذى أربك حياتك ، وعرضك لهذا الحادث .

(صلاح) :

- لا داعى لإحساسى بالذنب لا محل له يا أبى .. فحياتى لم تكن منتظمة كما هى الآن ، أما الحادث فهو شىء قدرى لا دخل لأحد فيه .. وكان من الممكن أن أتعرض له فى أى وقت وأى مكان .

وإذا كان هناك ما ألومك من أجله ، فهو أنك لم تلقننى هذا الدرس منذ سنوات طويلة .. لقد كنت بحاجة ماسة بالفعل لاتخاذ موقف تجاه نفسى ، وتجاه حياتى الماضية .. وقد جعلتنى أتخذ هذا الموقف بالفعل ، وأواجه نوعًا جديدًا من الحياة الخشنة ، التى علمتنى كيف أتحمل المسئولية وأكون رجلًا آخر .

أما عن زواجى من (عُلا) فبرغم أنه تم بطريقة خاطئة ، كانت امتدادًا لكل أخطائى السابقة ، إلا أنها الإنسانة الوحيدة فى حياتى ، التى أحببتها بصدق .. وكانت الدافع الثانى لى لكى أتغير .

(رشدى) :

- كان يتعين عليك أن تخبرنى بهذا الزواج قبل أن تقدم عليه .

(صلاح) :

- لم تكن لتوافق .. ولم أكن مستعدًا للتخلى عنها .

أطلق (رشدى) زفرة قصيرة وهو يقترب من فراش ابنه بخطوات مترددة .. ثم ما لبث أن ضم رأسه إلى كتفه قائلًا ، وهو يحاول أن يخفى العبرات التى تساقطت أخيرًا على وجنتيه :

- حمدًا لله على سلامتك يا بنى .

وبعد أن هدأت حدة انفعالاتهما إثر هذا العناق المشحون ، سأله (صلاح) قائلًا :

- كنت قد طلبت من (عمر) أن يحاول البحث عن (عُلا) .. ألم يعثر لها على أثر بعد ؟

(رشدى) :

- اطمئن .. لقد ذهبت أنا و (عمر) إلى محطة القطار ، حيث كان يتعين أن تتقابلا ، وهناك أخبرنا أحد موظفى المحطة أنه استضاف الفتاة فى منزله مع أسرته . وقد ذهب (عمر) معه لإحضارها ، بينما سبقته أنا هنا إلى المستشفى لأطمئن عليك .

قال (صلاح) وقد هدأت نفسه :

- الحمد لله .

(رشدى) :

- لابد أنهما الآن فى الطريق .

وفى تلك اللحظة سمعا عدة طرقات على الباب ، فنادى (صلاح) قائلًا :

- ادخل .

وما إن رأى الفتاة التى تدخل إلى حجرته ، حتى هتف قائلًا :

- (نجلاء) ؟!

قالت له (نجلاء) مبتسمة :

- لقد أتيت لأطمئن عليك ، حينما أتيحت لى الفرصة .

(صلاح) :

- ما كان يتعين عليك أن تحملى نفسك مشقة الحضور إلى هنا .. فالأمر لا يستحق كل هذا .

وقال (رشدى) مرحبًا بالفتاة وهو يجذب لها مقعدًا بجوار فراش (صلاح) لتجلس عليه .

- إنها ابنة خالتك ، ومن حقها أن تطمئن عليك .

وقالت (نجلاء) لزوج خالتها :

- حمدًا لله على سلامة (صلاح) يا عمى .

(رشدى) :

- الحمد لله يا بنيتى .

(نجلاء) :

- لقد اتصلت بـ (عمر) بمجرد أن أنهيت مكالمتى معك .. هل استطاع أن يعثر على (عُلا) ؟

تدخل (رشدى) قائلًا :

- لقد عثرنا على مكانها .. و (عمر) ذهب لإحضارها .

بدا (صلاح) قلقًا وهو يتطلع إلى باب الغرفة من آن لآخر .. أملًا فى دخول أخيه ومعه زوجته .

وحينما رأت (نجلاء) حالة التوتر التى يبدو عليها ، ربتت على يده فى تعاطف ، قائلة :

- اطمئن .. بعد قليل سترى (عُلا) هنا .

وما إن انتهت من عبارتها حتى فتح باب الحجرة واندفعت (عُلا) من ورائه إلى سرير (صلاح) ، وهى تقول فى لهفة وقلق :

- (صلاح) .. حبيبى .. هل أنت بخير ؟

استقبلها (صلاح) فى أحضانه ، وقد هدأت نفسه بينما انخرطت (عُلا) فى البكاء .

وفى تلك اللحظة دخل (عمر) خلفها ، حيث وجد (نجلاء) جالسة ، وسألها قائلًا وقد استغرب حضورها :

ـ (نجلاء) .. ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

(نجلاء) :

ـ جئت لأطمئن عليك وعلى (صلاح) وعلى (عُلا) .. هل نسيت أن (صلاح) أعطانى العنوان فى التليفون ؟.. الحمد لله على أنك تمكنت من العثور على زوجته .

وقال (صلاح) لزوجته وهو يمسح بيده على شعرها :

ـ آسف على أننى خلفت موعدى معك ، وعرضتك للمتاعب خلال اليومين الماضيين .

(عُلا) :

ـ المهم أنك بخير .. لقد استضافتنى أسرة طيبة خلال اليومين الماضيين ، وبذلوا معى مجهودًا كبيرًا للبحث عنك .

(صلاح) :

ـ ما كان لى أن أتخلف عن الحضور ، لولا هذا الحادث اللعين .

(عُلا) :

ـ لقد طمأننى الطبيب على نجاح العملية ، وقال إنك تستطيع أن تغادر المستشفى خلال أسبوع .

وألقت برأسها على صدره ، قائلة :

ـ آه يا حبيبى .. إنك لا تعرف كم كنت قلقة عليك .

قال (عُمر) وهو يضع يده على كتف (نجلاء) ، ويشير لأبيه باليد الأخرى :

ـ أعتقد أنه يتعين علينا أن نترك الزوجين الغائبين ، ليخلوا لبعضهما قليلًا .

نظر (صلاح) إلى أخيه بامتنان ، قائلًا :

ـ أشكرك يا (عُمر) على كل ما فعلته من أجلى .. وعلى سرعة تلبيتك لطلبى فى البحث عن (عُلا) .

ابتسم (عُمر) قائلًا :

ـ لا تقل هذا .. فأنت شقيقى ، وواجبى دائمًا أن أقف معك فى أية أزمة تتعرض لها .. الحمد لله على أننى وفقت فى لم شملك على زوجتك .

وصمت برهة قبل أن يقول ، وهو يتأهب لمغادرة الغرفة :

ـ آه .. لقد نسيت أن أخبرك .. أنا و (نجلاء) سنتزوج خلال الأشهر القادمة .

ونظر إلى وجه أخيه وهو يرقب رد فعل هذا الخبر عليه .

وأحس بارتياح عندما رأى ملامح (صلاح) تنطق بفرحة حقيقية ، وهو يقول :

ـ حقًا .. ياله من خبر سعيد !!.. إننى سعيد من أجلكما .

وقدم التهنئة لأخيه وابنة خالته ، قائلًا :

ـ مبروك يا (عُمر) .. مبروك يا (نجلاء) .

وقامت زوجته بتهنئتهما بدورها .. ثم تأهب الجميع لمغادرة الغرفة ، ليتركا (صلاح) ليخلو إلى زوجته .

ولكن (رشدى) استوقفهما ، قائلًا :

ـ انتظروا .

ثم أردف قائلًا :

ـ قبل أن نذهب ، هناك شخص أتى معى ، وينتظر فى استراحة المستشفى .. يتعين علينا أن ندعوه إلى هنا .

سأله (صلاح) قائلًا :

ـ من هذا الشخص .

نظر (رشدى) إلى (عُلا) قائلًا :

ـ سأذهب لإحضاره .

وغادر الغرفة ثم عاد بعد قليل ، وفى صحبته ذلك الشخص الذى كانت تبدو على ملامحه مشاعر الغضب والمرارة .

وما إن رأته (عُلا) حتى تراجعت عدة خطوات إلى الوراء ، وهى تهتف فى وجل :

ـ أبى .

وأطلت نظرة عتاب مريرة من عينيه وهو يقول لها :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟ إننى لم أقصر فى حقك فى شىء .. رفضت أن أتزوج مرة أخرى بعد وفاة والدتك ، من أجلك ومن أجل إخوتك .

قالت بصوت واهن :

ـ إننى لم أفعل شيئًا يغضب الله ، أو يشينك .. لقد تزوجت يا أبى .

صاح قائلًا :

ـ بدون علمى وبدون موافقتى .. أهذا ما ربيتك عليه ؟

قال له (رشدى) :

ـ (بحراوى) .. لقد اتفقنا على كل شىء قبل أن تأتى إلى هنا .. واتفقنا أيضًا على ألا يكون هناك حساب أو لوم .. خاصة أن الظروف لا تسمح بذلك الآن .

قال له (البحراوى) وهو يحاول أن يسيطر على انفعالاته :

ـ معك حق يا (رشدى) بك .. ليس هذا وقت الحساب .. فلنؤجل ذلك لما بعد ، المهم الآن أن ننفذ ما اتفقنا عليه .

سأله (صلاح) قائلا :

- وما الذى اتفقتما عليه ؟

(رشدى) :

- سنجعل زواجكما علنيًا أمام أهل البلدة .. وسنقيم فرحًا صوريًا ندعو إليه الجميع ، حفاظًا على كرامة الفتاة وأبيها .. وسنتظاهر بأننا قد عقدنا القران فى (القاهرة) .

وأردف (البحراوى) :

- أما بخصوص اليومين اللذين غبتهما ، فأهل البلدة يعلمون أنك قد قضيتهما لدى خالك فى (دمنهور) .. وأنك سافرت من أجل ذلك .

(صلاح) :

- وأنا موافق على كل ما اتفقتم عليه .. ومستعد لتنفيذه بمجرد مغادرتى للمستشفى .

(بحراوى) :

- وبعد ذلك سيكون لنا اتفاق آخر بشأن الطلاق .

صاح (صلاح) قائلا فى استنكار :

- الطلاق .

ولكن (رشدى) تدخل قائلا :

- لن يكون هناك طلاق يا (بحراوى) .. هذا الزواج سيستمر طالما أن كلًا منهما متمسك بالآخر .

(بحراوى) :

- وهل نسيت كلامك يا سعادة البك ، من أننا لا نناسب أشخاصًا مثلكم ؟.. فأنتم أسياد البلد ونحن ناس فقراء .

(رشدى) :

- كنت مخطئًا فيما قلته .

- وأشار إلى (صلاح) مستطردًا :

- حينما طردت هذا الفتى من منزلى ، كنت أريد له أن يتغير ، ويتعلم كيف يصنع لنفسه حياة جديدة ، بدلًا من الحياة المستهترة ، والأفكار الخاطئة التى كان يعيش فى ظلها .. ونسيت أننى أيضًا بحاجة لكى أغير من نفسى ، ومن الكثير من المعتقدات والأفكار الخاطئة التى ظلت تحكمنى .. برغم أننى حججت بيت الله .. نسيت أنه فى الحب والزواج لا قيمة للفقر ولا للغنى .. وليس هناك أسياد ولا عبيد ، ولا ذلك التعالى الطبقى البغيض .

(بحراوى) .. إننى متمسك بابنتك زوجة لابنى (صلاح) .

ونظر إلى (عمر) و (نجلاء) قائلًا :

- كما أننى متمسك بـ (نجلاء) زوجة لـ (عمر) .

وابتسم (البحراوى) للمرة الأولى وقد تهلل وجهه قائلًا :

إذا كان الأمر هكذا ، فإننى بدورى أبارك هذا الزواج .

وانصرف الجميع من الحجرة ولكن (رشدى) تراجع لدى الباب ، وعاد مرة أخرى إلى سرير (صلاح) ، حيث كانت (عُلا) جالسة بجواره قائلًا :

- اغفرا لى تطفلى عليكما .. ولكن أريد أن أقول لـ (صلاح) شيئًا آخر .

حاولت (عُلا) أن تنسحب لتدعه يتحدث إلى ابنه .. ولكنه أستوقفها قائلًا :

- لا داعى لذهابك .. فما أريد أن أقوله لن يكون سرًا عليك .

اسمع يا (صلاح) .. لقد عرفت إلى أى مدى قد تغيرت ، وبالعمل الذى كنت تؤديه هنا ، وهذا يطمئننى عليك . ويجعلنى أمد يدى إليك مرة أخرى ، لكى تعود إلى البلدة وتشارك أخاك فى إدارة الأرض والمصنعين .

لقد تقدمت بى العمر يا بنى .. ومن حقى الآن أن أستريح .. وأترك لك ولأخيك إدارة دفة الأمور لأستمتع بما تبقى لى من حياة .. لقد كنت قلقًا بسببك ، ولكنى الآن واثق أنك ستحافظ على مال أبيك ، ومالك أنت وأخيك من بعدى ، خاصة وأن بجانبك زوجة وفية مخلصة وتحبك .

(صلاح) :

- أعدك بذلك يا أبى .. كما أعدك بأنك سترى (صلاح) جديدًا .

(رشدى) :

- هناك شىء آخر أريد أن أحادثك بشأنه .. أنت تعلم أننى قد أضفت للمنزل الذى يضمنا طابقين ، أحدهما لك والآخر لأخيك .. وأنا أريد أن تختار أحد الطابقين ، لأننى كما أريد أن أراك مكانى فى العمل .. فإننى أريد أن أراك بجوارى فى المنزل .. أريد أن أرى كل أفراد أسرتى حولى فيما تبقى لى من عمر ، وقد أضفتما إليها زوجتيكما الطيبتين .

هذا إذا وافقت (عُلا) طبعًا .

قالت (عُلا) سريعًا :

- موافقة بالطبع يا عمى .. ويسعدنى أن تضمنى إلى أسرتك .

(صلاح) :

- حسن مادامت هى موافقة ، فأنا أيضًا موافق .

(رشدى) :

- إذن بقى شىء أخير .. أريد أن تعدنى به قبل أن أغادر هذه الغرفة .

ابتسم (صلاح) قائلًا :

- وما هو ؟

(رشدى) :

- أريد منك أنت وأخيك أن تملآ علىّ هذا المنزل بالأطفال .. أطفالكما .

فأسرة (رشدى السعدنى) يجب أن تكون كبيرة وممتدة الفروع .

وفى الحديقة المحيطة بمنزل (رشدى السعدنى) .. جلس الرجل مع زوجته ، يرقب ولديه وهما قادمان ، وقد أحاط كلًا منهما كتف زوجته بساعده ، تأهبًا لتناول الإفطار معهما ، على المائدة الممتدة فى الحديقة ، قبل أن يذهب كلّ منهما إلى عمله .

وابتسم (رشدى) فى سعادة وهو يراهم محيطين به وبزوجته ، فها هو أمله قد تحقق أخيرًا ، بعد أن التأم شمل الأسرة ، بعودة الإبن الغائب ، لترفرف عليها ظلال السعادة والآمال العريضة فى المستقبل ..

المستقبل المشرق ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

زهور

— سلسلة رومانسية رفيعة المستوى —

المؤلف



أ . شريف شوق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

عودة الغائب

كان على (صلاح) أن يتخذ موقفًا حيال نفسه وحيال ماضيه .. خاصة بعد أن أجبرته الظروف على ذلك ، وبعد أن أصبح مسئولًا عن زوجة يحبها . فقرر أن يرحل ليعود إلى الجميع شخصًا آخر .



الثمن في مصر ١٢٥ قرشًا

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم